كارل-هينّينغ ويكمارك

السيل المُقْبل

Telegram:@mbooks90

ترجمة: إبراهيم عبد الملك

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

كارل-هينّينغ ويكمارك

الليل المُقْبِل

رواية

تَرجَمَها عَن السُّوَيْدِيّة

إبراهيم عبد الملك

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

الكاتب: **كارل - هينّينغ ويكمارك**
عنوان الكتاب: **الليل المُقبِل**
ترجمة: **إبراهيم عبد الملك**

العنوان باللغة الأصلية: Stundande natten
الكاتب: Carl-Henning Wijkmark
ترجمة: Ibrahim Abdulmalik

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-43-8
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024
1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
Stundande natten © Carl-Henning Wijkmark,
first published by Norstedts, Sweden, in 2007.
published by agreement with Norstedts Agency

كلفة هذه الترجمة مدعومة بمنحة من المجلس الثقافي السويدي، مع الامتنان.
The cost of this translation was supported by a subsidy from the Swedish Arts Council, gratefully acknowledged.

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

تنويه:

جميع الهوامش في هذه الرواية للمترجم، لا المؤلف.

البداية

دَوريّاً كانت السّستَرُ(1) بيزيت، أو السّستَرُ أنيبلا، تعطيني حقنةً تجعلني ناعساً حين أستلقي يقِظاً وشديدَ اليقظةِ في تلك الأحلام التي تتلقّاني حين أغفو. ولكن، أكنتُ أغفو حقّاً؟ كان الأمرُ على الأرجح نوعاً من الغيبوبة وكانت الأحلامُ تَخَيُّلاتٍ لا ضابطَ لها، شديدةَ الوضوح ورفقةَ أحدٍ، أو أكثرَ، من الناس الذينَ يتحركونَ ويتكلمون. وغالباً ما وردت بعض الحواراتِ في أحلامي، لكنّها سابقاً كانت تردُ كأفكارٍ أفكر فيها أكثرَ منها أقوالاً أسمعها. أما الآنَ فالصوتُ مرتفعٌ وواضحٌ ولهُ ما يشبه صدى المخازن الذي يمحق الفروقَ الفردية. أصبح الأمر كمن يسمع روبوتاتٍ، ولكنّ ذلك لم يمنع أن ينالَ أولئك الّذينَ من ماضِيّ، ويقدّمونَ أدوارَهم في أحلامي، واقِعاً أقوى من هؤلاء الذينَ يحيطونني في الحاضر. هكذا كانت الحالُ على الأقلّ أوّلَ إقامتي في الصالة ٥. الأمرُ الذي سيتغير بعد حينٍ وجيز.

Telegram:@mbooks90

كانت البَرَكَة الكُبرى للحقنة طبعاً أنّها تُشَذّبُ حوافَّ الآلام ولفتراتٍ طويلة كانت تُزيلُها كُلّياً، وإذا بي، وأنا مَن ضاق ذرعاً، على امتداد حياة طويلة في عالم المسرح، بحديث العقاقير وأبطالِ المخدّرات، بِتُّ الآنَ مُدمِنَ مورفينٍ شَكوراً. ولكنني أريد مع ذلك أن أذكرَ على الخصوصِ عالمَ أحلامي الجديدَ وذلك لأنّهُ ينتمي إلى أكثر ما عشت مِنْ إيجابيّات في هذهِ المرحلة المتأخِّرَةِ من حياتي، حتّى وإنْ نَدُرَ أن يَبخل عَلَيّ بمشاهِدَ بغيضةٍ وأسئلةٍ ضاغطة. بالتأكيد ومع مرور الوقت أصبحت علاقتي بِرَفيقَي سَكَني في الغرفة أكثرَ صداقةً، وأكثرَ دفئاً بالمُمَرِّضَتَينِ اللتينِ ذكرتهما، لكنّ الأحلامَ كانت ملجأً أكثرَ أماناً. وتحديداً لأنني بأمسّ الحاجةِ إلى ملجأ، أمسَتْ الأحلامُ كما أسلفتُ أكثرَ واقِعِيّةً مِن واقِعي الحقيقيّ.

لأنَ التهرّبُ لَمْ يَكنْ ممكناً، أعني مِن كَوني وصاحبَيّ في **عنبرٍ للمحكومينَ بالإعدام** - أو «مخيّم القاعدة»(2) كما سمّيناه، حيث أنّ التحدّي الأكبر لَم يزل أمامنا. الغايةُ من الرِّعاية هنا هي المساعدة والتخفيف، لا الشّفاء، وليسَ هنالكَ أصلاً من يدّعي أنَّ أحداً منّا، نحنُ المرضى، بالمستطاعِ إنقاذه. ما نِلْناهُ هو لُطفٌ وعنايةُ بضعِ ممرضات بهيئةِ مُسَكّناتِ آلام ومساعَدَةٍ في النظافة البدنيّة، عدا ذلك فلم نَنَلْ ما يجعلُ الحياةَ أسهلَ لنا في هذا الوقت المتبقّي. كانَ الطّعامُ بلا طعم، أشبه بالبلاستك، ويُفَرِّجُ عَنّا

عندما يُبدَلُ الطعام بقطراتِ المغذّي كلّما تَطلّبَ ذلكَ تَدهورٌ في حالتِنا. ولأرواحنا وفّروا مواساةَ الدينِ والعلاجِ النفسي ولحسن الحظ، كما يجدر بي القول، ما كانَ بالنسبة لي أهمَّ أنواعِ الدّعم: ذلك الشاب الذي يطلع علينا كلّ إثنينٍ وجمعةٍ بعربةِ كُتُبِه. كنتُ دائماً توّاقاً للقراءة، ولكنني الآنَ صرتُ أقرأُ طلباً للنجاة، وقد نَمَتْ هذه القراءة لتصبح أقربَ إلى مشروعٍ شديد التّوَتُّر، ومحاولةً لاختلاس النظر إلى ورَقٍ أشدّ خصومِ اللعب لأجعلَ كفّتَي الصراع أكثرَ توازناً والهزيمةَ أكثرَ قبولاً. لَم يُحجِب عنّي أنّ دراساتي القسريّة في فنّ الموت سوفَ تُقصّرُ عمّا قريبٍ حياتي. رُبّما، ولكنّ الأمرَ استحقّ عناءه.

لاحظتُ بعد قليلٍ أنّ هارّي وبُزيَة، رفيقَي سَكني، ينظرانِ بامتعاضٍ إلى أكداسِ كتبي، وكأنني غَشَشتُ واتّخذتُ طرُقاً ملتويةً لِجُبني أمام العدوّ. حتّى وإنْ لم أهتَمّ بذلك، فقد كان للأمر شيءٌ من الأهمّية فيما بعد، فَقَد أدّى ذلك إلى خلقِ مسافةٍ بيننا، نحن الذينَ بقينا حتّى النهاية.

تكلّمتُ عن **اثنينٍ** من رفاقي، لكنّهم في الحقيقةِ كانوا ثلاثة. كان للثالث دورٌ صامت، عدا عن كونه غير مرئي. وسيأتي توضيح ذلك حالاً.

في السرير المُقابِلِ لي رقد هارّي، الذي صارَ رغم كلّ شيءٍ صديقي - إلى حدٍّ ما، فذلك يتبدّل حسب تغيّر الحالة الصحية يومياً. كان في عُمري، مُتقاعِداً منذ عدّة سنوات. كانت حياتُهُ قد انهارتْ مُبَكّراً على الصعيد الاجتماعي، وطوال أكثر من ثلاثة عقود عاش في شوارع ستوكهولم ومآويها، كانَ (3)drop-out ومُشَرّداً على فترات، دَهْوَرَتْهُ المُخدّرات والسُّكْرُ والليالي الباردة وكذلك طبعاً سوء التغذية، لكنّها لم تقصِمْ ظهرَه. ربما لم يتسبب ذلك كلُّهُ في مَرَضه، لكنّه فاقَمَه. ولم يكن بالطبع مضطرّاً إلى العيش هكذا، على الأقلّ ليس إلى هذه الدرجة المتطرّفة. لقد كان خياراً اتّخذه، على أساس ظروفٍ لامَسَها مرّةً مع أنّها كانت عابرة. قُبالتي على الطرف، عندَ النافذة - المُطِلّةِ على حديقةٍ بها أشجارٌ معدودة - رَقَدَ بُزيَة، رجلٌ بين الأربعين والخمسين، موظّفٌ في البريد، وظيفتُه مُبهَمة: لم نتكلم أبداً عن الحياةِ المِهَنيّةِ مع بعضنا البعض، ولعلّ ذلك كانَ مراعاةً لهارّي. التابو الآخر كانَ ما نعاني منه وكفّه،

كالتشخيص مثلاً، وتوقعات سير المرض، والأدوية وما إلى ذلك - إحتَفَظَ كلٌّ منا بذلك كلّه لنفسه أو ناقشه في محادثاتٍ خفيضة الصوت مع الأطباء والممرضات. رقد كلٌّ منّا في عذابه مُرسِلاً موجاتِ معاناتِهِ الصّامتة إلى الآخرين. أحياناً كان يحدثُ، عندما يبلغ الأذى والكَرْبُ غايةَ التجلّي، أن تندّ عن المرء دونَ قَصدٍ نظرةٌ أو تلويحةٌ أو بضع كلماتٍ متعاطفة. لم يدم مثل ذلك أكثر من لحظةٍ أبداً، وَلَم يشترك بُرية في تبادل مشاعرٍ كهذا أبداً، لَم يُواسِ لا نفسَهُ ولا غيرَه. خلافَ ذلك فقد كان يُعبّرُ عن شَغَفِهِ الكبير المُتَمَثِّلِ بالتّيس والتُّوتو(4) وألعاب القمار والمُراهناتِ بكلّ أصنافِها. كان أحد أوائل مقترحاتِهِ، عندما كنتُ نزيلاً جديداً في الصالة (حيث كان هو وهارّي يرقدان مسبقاً منذ مدة)، مُتَعَلِّقاً بِرِهانٍ عَمَّن مِنّا سيكون آخرَ الهالكين. قدّمَ المقترحَ كشيءٍ طبيعيٍّ، ولكنني لاحظتُ بُعَيدَ ذلك وجودَ نِدِّيَّةٍ جادّةٍ تحت السّطح، لا على طول الحياةِ فقط، بل وكذلك على إحسانِ المُمَرِّضات؛ فالمُحاباةُ هنا مُبالغةٌ في القول إذا أخذنا في الحسبانِ الوضعَ الصحي الذي كُنّا فيه. على أيّةِ حال، طلبَ بُرية جمعَ عطاءاتِ الرهان على «العجوز الأكثر بلادة»، وعرَضَ علينا كذلك المراهنة مباشرةً. بِكَياسةٍ راهنّا أنا وهارّي على فوز وكيل المراهنات، فقد كانَ أصغرنا سنّاً، ولديه عائلة (الأمر الذي لم أعرف بِهِ طبعاً إلا بعد حين). أحجَفنا عن الرهان على المركز الثاني. تسبَّبَت مسألة الربح بشيءٍ من الغَفغَمَة عن وصايانا، الأمر الذي حَيَّدَهُ بُرية ببراعةٍ هائلة. كانت اللعبة ذاتُها هي الأهم.

ثُمَّ كان هناك ذاك الرجل الرابع في الغرفة، ذلك الصّامتُ واللامرئي. امتنعنا طبعاً عن المراهنة عليه، وفيما عدا ذلك فليس هناك شيءٌ آخرُ مُستَتِرٌ بشأنه، كان من لحمٍ ودم. كان سريره إلى يساري، عندَ حائط النّافذة، لكننا لم نكن نعتبره حيّاً أبداً، وحَجَبَتْهُ عن أنظارنا ستارةٌ خضراء تدورُ على سكّةٍ معلّقةٍ في السّقف. زَعَم بُرية الذي رقد قُبالَتَه أنّه قد رأى لمحاتٍ منه، قدماً ركلت السّتارة، وذراعاً امتَدّت خارِجَ حافّة السرير، ولكننا لم نَرَ كاملَ هيئتِه قبل أن يموتَ ويُغَطّى ويُسحَبَ خارجاً إلى آبائه، الذينَ كانوا ينتظرونه في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. كان العاملون في غاية التّكتُّمِ بشأنه، وكان واضحاً أنّ هناك أوامِرَ بذلك، الشيء الوحيد الذي عرفناه أنّ أصلَه من قارّةٍ أخرى (أو «ثقافة» أخرى كما صارت تُسَمّى). عبر كلمةٍ طارت عفوياً ممّن

لا أعرف مَنْ مِنَ الممرضات بَلَغَنا أنّ أصلَهُ مِن أميركا الوسطى - خطأ، كما تبيّن لنا - ولذلك أطلقنا عليه اسم مونتيزوما(5)، الذي اختُصِرَ بعد حينٍ إلى مونتي. شغلنا كثيراً إخفاؤه وكذا وأكثر صمتُه - لم يتأوّه مرّةً ولم يشخر ولم يكن بمقدورنا سماعه يأكل لأنه كان مربوطاً بالمغذّي. ليلاً، كان ذلك السُكوتُ، الكامن في الخفاء، من الجبروت حدّ أنّه ملأ الظلمة، وكنا نتساءل عمّا إذا كان ما يزالُ حياً.

كان أغرب ما بشأن مونتي أنّ لديهِ حضوراً بالغ القوة رغم عدم قدرتنا على رؤيته أو سماعه. أو لعلّ ذلك لم يكن بتلك الغرابة. في حالتنا تلك، ونحن في محطتنا الأخيرة، كان لدينا تقبُّلٌ خاصّ لما يستَتِر في الجهة الأخرى من الخِباءِ، بينما تعززت سلطة السكوت بجزعنا قُبيل الصمت النهائي. تولّدَت شحنةٌ ما حولَ الزاوية المحجوبة، نالَ مونتي عنها دورَ كائنٍ خفِيّ، كائنٍ إلهيٍّ معزول. أحسسنا بذلك ملء الهواء؛ لاحظتُ أنّ الأمرَ لم يكن مُجرّدَ لعبةٍ بالنسبة لأيٍّ منّا. كان بُريةُ على الأخص مأخوذاً بشدّة. كما اكتسب ذلك المُعتَقَدُ السّرّيُّ نوعاً من الوسيط أو النبيّ، بظهورٍ زائرٍ - جليٍّ أنّهُ من البلد نفسه - أكثر من مرة. كان شابّاً نحيفاً، طويل القامة إلى حدّ ما رأينا أنّه يبدو كهنديّ أحمر. كان يحملُ معه حقيبةَ ظهر ضخمةً من جلدِ بُنّي، أخرج منها ما فهمتُ أنها تماثيلُ صغيرةٌ من الخشب. اختفى معها خلفَ السّتارِ لكنّه عادَ فبَرَزَ منه في الحال، خارِجاً يسير إلى الخلف وكأنّهُ لم يَشأ أن يعطي ظهرَه لذلك المريض، وكانَ عندئذٍ فارغَ اليَدَينِ. بعد ذلك وقف على حافة الممشى المحصور بين الستارة والنافذة، وذراعاه متقاطعتانِ فوق صدره وقدماه مضمومتانِ إلى بعضهما البعض فيما بدا كوقفةِ تبجيل، متحدّثاً إلى ابن بلدِه داخلَ الزاويةِ. بقي يتحدّث لمدةٍ طويلةٍ إلى حدٍّ ما، وَبِلُغَةٍ لَم يعرفها أيٌّ منّا، ولكنّه لم يتلقَّ أيّ ردٍّ قَذرَ ما سمعنا. حين ذهب الرجلُ تحاوَزنا بصوتٍ خفيض عن كل ذلك، هامسينَ باحترام، وأظنُّني في تلك اللحظة، بعد زيارة رفيقه الأولى، شعرتُ بأنّ حُضورَ مونتي يُجَمّعنا نحن الثلاثة بقبضةٍ غير مُحدّدةٍ ولكنّها مقتدرة. كان، حتّى وإنْ لَم نُفَكّر بذلك صراحةً، مُغتِقاً، ومُحَفّزاً في وضعنا. في المشاعر تجاهه أمكننا أن نلتقي، وهكذا استمرّت الحال أيضاً بعد أن غادَرَنا.

مرّ أسبوع، أسبوعان: مونتي صامتٌ ولامرئي. حتى بيزيت وأنييلا، اللتانِ رأيناهما

عدّةَ مراتٍ في اليوم الواحد، لم تُريدا أو تستطيعا إخبارَنا مَنْ كانَ ومِمَّ عانَى. لا شيءَ سوى أنّ حالتَه كانت سَيِّئةً للغاية. وكلّما أردنا أن نعرف المزيد من إحداهما، كانت تَهُزُّ رأسَها. أخيراً بانَ لنا رغمَ ذلك، وبأقلِّ الطرقِ تَوَقُّعاً منّا.

كان ذلك في ليلةٍ شاهدنا فيها يوروسبورت(6) على التلفزيونينِ المُعَلَّقينِ في السقف، واحداً لكلِّ زوجٍ من الأسرّة ولكنّهما متّصلان: ما يعرضه الأول يعرضه الثاني كذلك. بُرية هو الذي كان يشاهد التلفزيون غالباً وهو من كان يقرر البرنامج عادةً. لذلك طغت الرياضة على ما شاهدنا، لا لأجلِ الرياضةِ بحد ذاتِها قدرَما أنّ ذلك وَفَّرَ لِبُريةَ فُرصَةً للمراهنة والمُقامرة معنا. لم نكن مستمتعينَ في تلك الليلة ورفضنا الرّهانَ على بعض مباريات الهوكي التي عبرت على الشاشة. فانطلقَ بُرية في تقليب القنواتِ صاخباً. أوشكتُ أن أضع قناع النوم وقايةً من التلفزيون ومن نور سبتمبر القويّ، حين رأيتُ أن بُرية قد عثر على إحدى مباريات الكريكيت النّادرة. ولعله أمرٌ مضحكٌ، لكنني أحب ذلك التسكّع المتهادي بين الهدفين، فبدأت أشاهد. وهكذا فعل الآخران - لما يقارب دقيقةً من الوقت. رفع بُرية جهازَ التّحكُّمِ عن بعد كي يُغَيِّرَ القناة ولكنّه دون قَصْدٍ رفعَ الصوتَ عوضاً عن ذلك، فسمعنا المنادي يُنادي: «جوردون هارت تسعةٌ وأربعون، ليس خارجاً!»، تلا ذلك اختفاء الكريكيت لننتقل إلى سباق ترويضٍ كلاسيكي للخيل في ألمانيا لم يرغب أحدٌ في مشاهدته. بدلاً من ذلك حاولنا تأويلَ نداء المنادي. لا بدَّ أن ذلك يعني أنّهم فازوا، أنّ لاعبَهم هارت لم يُخرَق، اقترَح هارّي. غمغمنا أنا وبُرية غيرَ متأكّدَينِ، وبذلك بدا أن الموضوعَ انتهى. عندئذٍ حدث الأمر. عندئذٍ تكلّم العرّاف.

«Hart still batting to-morrow»(7) صوتٌ خفيضٌ لكنّه واضحٌ من داخلِ الخيمة الخضراء. تلاه بعضٌ من القَرَقِ(8) وكأنّهُ قالَ شيئاً مُضحكاً. وهو كذلك حقّاً. في الأساس كنّا مهزوزين، لكنّ اللعبة اللغويّةَ خفّفَت الصّدمةَ بعض الشّيء. في اللحظة التالية أدركْنا أنّ مونتي لا يمكن أن يكونَ من أميركا اللاتينية، إذ لا تُلعَبُ الكريكيت هناك. فهي هناك بالنُّدرَةِ نفسها التي يوجدُ فيها من يتكلم الانجليزية بلكنةٍ هندية. قُمتُ بمحاولتينِ خرقاوينِ للحديث مع الرجل اللامرئي، لكنّهما عدمتا

الاستجابةَ. لم يتكلّم مونتي بعدئذٍ أبداً مع عالمه المحيط. بعد بضعةِ أيّامٍ مات.

بعد موتِهِ أخبرتنا أنييلا أنّ أصلَه من جُزُر نيكوبار، وهي مجموعة جُزُرٍ هندية يسكنها مستعمرون منغوليون منذ بضعة آلاف عام وأغلبُها حالياً دمّره التسونامي. باعتباره أبرز العارفينَ بعبادات سكانها وآثار تلك العبادات فقد أُرسِلَ مونتي مع مساعدٍ له إلى أوروبا كي يُطالِبَ باسترجاعِ مجموعات اللقى المكتشفة في جزر نيكوبار والمحفوظة في المتاحف الأوروبية أو تصويرِها على الأقل. في سفرتِه من فيينا إلى ستوكهولم أُصيبَ بمرضٍ قاتل، مجهولٍ ما هو؛ ومن هنا كان التّكتُّمُ حول المريض البعيد الدّيار.

مات ليلاً، وفي الصباح، عندما استُدعِيَ الدكتور يان مولّر - أقلُّ الأطبّاء، الذين نَدُرَ أن نراهم، تعاطفاً - حتّى يُعلِنَ موته، حَدَثَ مَشهَدٌ ترك أثراً بالِغاً، ربما ليس في الدكتور وإنّما فيّ أنا ومن معي من الحاضرينَ الآخرينَ. سحبَ مُمَرِّضٌ - أطلقنا عليه اسم **هُلْك**(9) - السّريرَ إلى الخارج ومونتي الميت مَخفِيٌّ تحتَ شرشفه. بقي مولّر واقفاً عندَ النافذة يرمُقُهما بنظرتِهِ «المحترفة» اللامُبالية. حينَ كادَ الطّاقمُ يمرُّ بين هارّي وبَيني، فعل هارّي شيئاً مُذهِلاً. حاولَ النهوضَ لكي يقفَ عندَ السّريرِ حتّى يُبدي احترامَهُ. لَم تنجح محاولتُه تماماً، تَرَنَّحَ واضطرّ إلى الجلوس. لكنّ الجميعَ استوعَبَ فِعلَهُ، الذي كانَ شديدَ الجمالِ حقّاً في هذه الصّالةِ البائسة. بدا الدكتور مبهوتاً أوّلَ الأمر، لِيُظهِرَ بعدَ ذلك تعبيراً صغيراً دلالةَ احترافه. توقّفَ هُلْك للحظةٍ أمامَ سرير هارّي، مبهوتاً هو الآخر، لكنّهُ أدرَكَ على الأقلّ أنّ شيئاً غريباً قد حدث، رأيتُ ذلك بادياً عليه. تمنيت لو امتلكتُ الاندفاعَ ذاتَهُ الذي لدى هارّي، ولكنّه مما افتقرت إليهِ مع الأسف. لقد استوفى ذلك الصعلوك العجوزُ المُحَطَّمُ شرطَ النُّبل، أما الدكتور ونحن الآخرين معه فَلَم نفعل.

أسعدَتْني لَفْتَتُهُ البسيطةُ البالغةُ العُسرِ في آنٍ معاً، وأثّرَت فيّ عميقاً. وليست أقلّ ما في الأمر سعادتي بأنّ المرض لم يغرقني بعدُ في ذاتي حدّ عدم التأثُّرِ بذلك. ولكنني في الحقيقةِ لم أتفاجأ بما رأيت، فذلك مما يليقُ بهارّي، أمرٌ آخرُ مُتعلّقٌ به هو ما باغتني أكثرَ، ولكنّه جرى بسرعةٍ بالغةٍ إلى الحدّ الذي جعلني لا أُدركه في

حينه. في تلك اللحظة التي التوى فيها ليجلسَ بحركةٍ لابُدَّ أنّها كلّفَتْهُ، انزلَقَ أحد ذراعي قميصِ نومِه إلى ما فوق مِرفقِه وكَشَفَ عن نُدبَةٍ كبيرةٍ حمراءَ مُزرَقّةٍ في مَأبِضِهِ(10)، أثراً لِحَزقٍ أو رُبّما كانت وَخمَةً. غَطّت الندبةُ باطِنَ المرفقِ وديسيمتراً حولَه، وعندَما ثَنى هارّي ذراعَهُ لاإرادياً كي يُخفيها، انطوى الجلدُ المُبَقّعُ كما في أكورديون. لقد كانت صدمةً بَصَريّةً مُريعة. توَقّفَ تفكيري، سرى الإحساس في بدني مباشرةً: إشعارٌ عن الفناء المُتَرَبِّص، عن الإبادةِ بالنّار.

مَرّ هذا المشهدُ الذي حَفَلَ بالكثير وانتهى في ثوانٍ معدودة. اختفى الميث بكاريزماه المُلغِزة، وانسلّ الدكتورُ إلى حيثُ كومبيوتره دون أن ينبس بكلمة. وبُرية؟ لم يتغير أيُّ ملمحٍ مِن ملامحه، لكنّ دموعه سالت. لقد أدرَكَ، وأنا نفسي أدركتُ أخيراً أنّه لم يكن أيّاً كان. كنتُ قد فَسّرتُ مظهرَهُ اللاشخصيّ ومصطلحاتِهِ الأليفة كنوعٍ من الانصياع، أضَلّتني أحكامي المسبقة. لَعَلّهُ، خلف واجهةِ برميل البيرةِ والمُقامِرِ، كانَ الأشدَّ حساسيةً وِ- كما تبيّنَ لي لاحِقاً - بالتأكيدِ الأشدَّ تعاسةً بيننا نحن الثلاثة في الصالة ٥.

لَم يخلُف أحدٌ مونتيزوما على يساري. وكان أمراً لا بأسَ به في حدّ ذاتِه ولكنّه أغضبني كذلك، لأنني نفسي أُجبِرتُ على الانتظارِ شهوراً حتّى أدخلوني المستشفى وأجروا لي العملية، وكانت الحجّة شحّة الأماكن. سألتُ أحد الأطباء هنا عن الأمر، ولكنّ أسئلةً كهذه لا تُقابَلُ بإجاباتٍ صريحة.

أتذكّرُ كيف كنتُ أشعرُ عندما خرجتُ من العيادة في شقياقاجن(11) بعد حصولي على نتيجة الفحص الحاسمة. وقفتُ مدّةً طويلةً على الرصيف خارجَ البوابة أشاهِدُ مرورَ حركةِ السّير وجميعَ الوجوه عديمةِ التعابير ولم أصدّق أنّ ذلك قد حدثَ لي. خَطَرَ مُضافٌ كانَ للتّوّ قد سَكَنَ عَضفُه لتعودَ الهمومُ الصغيرةُ إلى أخذِ أماكنها وكأنّ شيئاً لم يحدث ولا كان على وشك الحدوث. عندئذٍ، عندئذٍ تحديداً انقضّت الكارثةُ من جهةٍ أخرى لم أحتسب لها. ثُمّ بدأ انتظاري للعمليّة الجراحية، ولم يكن قبلَ تَدَهوُرِ حالتي - بلى كانت ميؤوساً منها مُسبَقاً - أنْ أُدخِلتُ إلى هذه العيادة. أجرى الدكتور هِانسون العمليةَ الجراحيةَ: فتَحَ، وعايَنَ وخاطَ الجرح. ليس هناكَ ما يمكنُ فعلُه، توقعتُ الأمرَ حتّى وإنْ لم يَقُل هانسون ذلكَ صراحةً. لقد فعلَ الصوابَ، كما أرى. ودخلَ فوراً في نزاعٍ مع مولِّر، الطبيب المسؤول عن القِسم، الذي كان لديه رأيٌ آخر مفادُهُ أن المريض كذلكَ في الحالاتِ الميئوسِ منها «له الحقُّ في»، كما قال، «الاطّلاع على المعلوماتِ المتوفرة كافّة». دخلَ عليّ عندما أفَقتُ من تأثير البنج، و«على الماشي» حرفياً بدأ يتلو عَلَيّ النّصّ. أوقَفتُه. لا أريدُ، قلتُ له، أيّةَ توقّعاتٍ عن طولِ المدّةِ التي بَقِيَت لي طِبقاً للإحصائياتِ. فحينَ كان بالإمكانِ إنقاذي، لم يكن لدى نظام الرّعايةِ الصحيةِ مكانٌ لي، أو وقت. كل ما أريده الآنَ أن أُترَكَ لحالي مع مَواتي وأن أعيش أطولَ ما يمكن على ذلكَ الشّكّ الموجودِ رغم كلّ شيء. ولعلّهُ ليسَ من الحكمة، لكنّهُ أمرٌ تطيب له النّفس. أعطِني المورفين فقط، عندما أطلبه، وسأكون في غاية الرضا. ولن أطلبه دون حاجةٍ مُلِحّة.

لقد عنيتُ ما قلتُ وكنتُ سعيداً أنني لم أزل حيّاً. لعبتْ نشوةُ ما بعد البنج، إنْ صحّت التسمية، دورَها وَوَضَعَتْ تلك الكلمات الجسورة في فمي. ولكنني، أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ، رأيتُ منظراً رائعاً عند الاستيقاظ نفسه، وسأعودُ إليه بعد حين.

بدا مولّر مندهشاً بعض الشيء، وساخطاً. فقد كَدَّرَتْ سَطْوتُه الطِّبيّة. فمنذُ دخولِهِ لم يواجه نظرتي، ولم يفعلْ ذلكَ الآنَ حتّى. أصَرَّ على النظر في لابتوبه(12) عندما أجاب بأنني على الأغلب شعرتُ بذلكَ لأنني كنتُ مأخوذاً، وأنني على الأرجح سوف أغير رأيي. استفزّني أسلوبُه، ولكنني مواصلاً ببشاشة وحزم طلبتُ منه أن يعتبرَ، وإلى أجلٍ غير مسمّى، ما «شعرتُ» به كحقيقةٍ ويحترمه. أطبَقَ لابتوبَهُ بصفقةٍ وترك المكانَ بخطى سريعة. لقد اكتسبتُ عدوّاً، وهو الأخير كما تَبَيّنَ. لَم يَفُتني أنَّ موقفي يمكن اعتبارُهُ خوفاً من مواجهة الحقيقة، حقيقة العدو الأكبر. ما استفزّني هو برود الرجل، احتقاره للإنسانِ الضئيلِ الذي ليس لديه سوى «المشاعر» وعليهِ «إبلاغُه». لا لأن ذلك هو الأخيَرُ لَهُ بل لتسهيل مهمة العاملينَ حولَه ولئلّا يأملَ في مجهودٍ يعدو حدودَ الإجراءاتِ الرّوتينيةِ العادية.

لكنْ، وكما قُلتُ، فَحتّى مولّر نفسُهُ لم يملُكْ أن يُنَغِّصَ بجدّيةٍ ثُمالَةَ شعورٍ بالسّعادةِ. فقبلَ مدّةٍ من دخوله، مع أوّلِ استيقاظي من غَيبَتي، رأيتُ منظراً خلّابَ الجمال، شككتُ لوهلةٍ في واقعيّتِه. سمراء جلست متدلّيةً فوقي، بعينين سوداوين، وشعر أسود. لم أستطعْ في البدءِ تحديدَ ما إذا كانت ممرضةً أو طبيبة، لم تكن ترتدي تلكَ السترةَ البيضاء العاديةَ بل رداءً أزرَقَ، مشدوداً أكثرَ. ما تسمّرت نَظرتي المغبشة عندَه هو كتِفاها: لَوَت جسدَها قليلاً كما لو انّها كانت تبحث عن وضعيّةٍ أريَح - لا بقصد الإثارةِ إطلاقاً ولكنّها مع ذلكَ أبرَزَتْ هشاشتَهما الآسرة. ما كنتُ لأنالَ صحوةً أجملَ، إنّما أكنتُ بالفعلِ يقِظاً وحيّاً؟ على الأرجح، فقد شرَعَتْ تعنى بي، وعدّلَتْ وضعَ الوسادة، وأمسكت بيدي وابتسمت بعينينِ ملؤهما المودة.

«أنييلا»، قالت. «معذرةً لأنني لم أطرق الباب».

كانت مزحةً بالطّبع. وابتَسمَتْ أكثر.

«مثلُكِ لا تحتاجُ إلى ذلك». طلعت الكلمات من تلقاء نفسِها وأذهلتني. للأسف بدا صوتي جنفاصيّ الخشونة، لم تكن حروف العلّة كما ينبغي لها.

رفَعَتْ حاجبَيها وضحكَتْ. «خُذ قِسطاً آخرَ من النوم»، قالت. «وسيأتي الدكتور عمّا قريب».

«أنييلا»، غَمغَمتُ. ولكنّها كانت قد نَهَضَتْ بالفعل وغابتْ عن مَدى رُؤيَتي الذي عادَ وتَضَبَّب. فَغفَوت.

كان ذلك في غرفةِ الإنعاشِ، حيث رَقَدتُ وحدي. في اليوم التالي نُقِلْتُ إلى الصالة ٥.

ها أنا راقدٌ هنا. لا بُدّ أنّ أيامي كانت معدودةً، لكنني بعد حديثي مع «جنكيز يان» (كما أسماهُ هارّي) أمِلْتُ أن لا أُضطَرّ إلى المساهمة في هذه الحسبة، التي كانت صحيحةً بالتأكيد ضمن إطارها وضمن ما يتعلّق بها من «فنّ الشفاء» (هارّي ثانيةً). على أنني عزمتُ على توسيع الإطار عبر إعارةِ أقلّ ما يمكن من اهتمامٍ بمسار المرض والتركيزِ عوضاً عن ذلك على الهدف النهائي، الذي كان بالطبع هو نفسهُ بالنسبة للجميع. مَنْ شدّ من أزري في هذه الفرضية، وساعدني أكثرَ بكثيرٍ مما يمكن للمرء أن يطلبه، كان ذلك الشّاب الذي اعتنى بمكتبة المرضى. اسمه جورج، وكان يدورُ على الأقسامِ ساحباً عربةً تغصّ بالكتب، كتب من المكتبة العامة كان من المشجّع أنّ بإمكانِ المرء استعارتها لمدة شهرٍ في المرة الواحدة. كان جورج شغوفاً. على جوانب العربة لَصَقَ لافتاتٍ صغيرةً، قرأتُ على زوجٍ منها «العودة إلى الثقافة» و«الأفلام أفضل ما تكونُ في الكُتُب»(13). حين استعدتُ بعضَ نشاطي، قبضتُ ممتنّاً على بعض كتبه، كانت الاختياراتُ راقيةً فاستفزّت على الأرجح بعض المرضى الذين ولأسبابٍ مفهومةٍ أرادوا أشياء أسهلَ (وكان لديهِ ذلك أيضاً، بالمناسبة، إنما مع بعض التقتير). حتّى أنا في البدء كنتُ أريدُ الهروب من الحالةِ المُفرَغَةِ من السعادة، من الغرفةِ القبيحة، روائح المستشفى، كلّ ذلك الجوّ.

ما كاد جورج يدفع عربته خارجاً حتى غرقتُ في قصص حروب تولستوي التي لم أقرأها أبداً من قبل. تلك الرؤية المرفوعة بقَدْرٍ مُعذِّبٍ تقريباً ذكّرتني بأحلامي تحت تأثير المورفين، فكنتُ أواصل القراءة تلك الآناء القصيرة قدرما تحمّلت، وبعد يومين وجدت تلك الفقرة في «سيفاستوبول في مايو ١٨٥٥» التي تصف تجربة جندي في لحظة الموت، تلك الصور التي تمرّ بينما هو يظنّ جراحَه طفيفةً ويحاولُ النهوض - في حقيقة الأمرِ كان قد ماتَ على الفور: «لقد ماتَ في مكانِه بشظيّةٍ أصابته في وسط صدره». يمكنني القولُ أنّ هذا العرضَ، هذا الخيال عن لحظة الموتِ الممدودة قد غيّرَ حياتي، أعني ذلك القليلَ المتبقّي منها. لقد منحني رؤيةً جديدةً لما يعنيه أن تموت، ومهمةً أخيرةً في الحياة: لا أريدُ الاكتفاءَ بأن أمُطّ لحظةَ الموتِ كما فعل جنديّ تولستوي - هذا إنْ كنتُ سأنالِ الفرصة فلا أموت في نومي - بل المسافة كلّها إلى تلك اللحظة. وكيف لي ذلك؟ بلى، قررتُ للتوّ والكتاب مفتوحٌ على اللحاف أمامي

أنني سأواجهُ العدوَّ وأفرُّ منه في الوقتِ نفسه عبر التِهامِ كلَّ ما أمكنني ووجدت الوقت الكافي له عن الموضوع، شعراً، وفَنّاً، وفلسفةً، وأنثروبولوجيا، ودِيناً - متجنِّباً أيَّة كلمةٍ عن الوقائع الجسدية التي أنالُ كفايتي منها كلَّ يوم: فلم أكنْ أبداً مهتمّاً بمصاريني ولن أبدأ بفعل ذلك الآن.

اتَّقَدَ الأملُ في برنامج قراءةٍ كهذا عندي حين سألنا جورج يوماً عمّا إذا كانت لدينا أمنيات بعينها. في غضون يومين، قال، سيكون بإمكانِهِ توفير ما نريد، في حدود المعقول (وأكثر من ذلك، كما تبيَّنَ)، وليس من المكتبة العامةِ وحسب بل وكذلك من المكتبات الأُخَر. وقد وفى بوعده. حين أُراجِعُ متأمّلاً هذه الأسابيع التي مرّت مؤخّراً، فأنا متأكّدٌ من أن صديقي جورج منحني حياةً أطولَ و، بكلِّ حالٍ، أسهلَ وأفضل.

ما كانَ أهمَّ من انطباعاتِ القراءة نفسِها وتلك الأفكار التي ولَّدَتها هو أنَّ المونوتون(14) انكسر، أن شيئاً آخرَ حدث عدا أخذ التحاليل، والذهاب للحمّام، ونوبات الأطبّاء المتباعدة والطّعام الذي بالكاد يمكن أكله. ولم يفت رفيقَيَّ سكني أنني كلما قرأتُ أكثر عن الموت كلّما زاد نشاطي أكثر. وحتّى مع حرصي على عدمِ طرح النصوص على غيري، فقد نلت بعض السُخريةِ بل ونظراتٍ صغيرةً من حسدٍ: فأنا لم أغشَّ فقط، بل ربحت بذلك أيضاً.

ولكنني لن أُبالِغَ في ما أحرزتُ من تقدّم. كانت معنويّاتي على ما يرام بسبب الدراسات، أما الجسد فقد وجد فيها ما أنهكه وكان وارداً أن أسقطَ في أية لحظةٍ في غيبوبةٍ، عميقةٍ إلى حدٍّ ما، حيث تشرع مشاهد الأحلامِ التي تأخذ مادّتها ممّا قرأتُ للتوّ. في بعض الأحيان كانت بِيزيت وأنييلا تظهرانِ كروحينِ حارستينِ لتُذَكِّراني عبر ذلك بأنني لولاهما ولولا ذلك المُخَدِّرِ صانعِ المعجزاتِ ما كنت لأرى متعةَ قراءةٍ أو مسرحَ أحلام - كانت الآلام ستطغى وتطفِئني تماماً. هذا العالم الموازي هو ما أعيش لأجله الآن، ذلك لأن الحقيقيَّ لئيمٌ وعديمُ الرأفةِ. لا شيء يعدل تلك الثواني التي تلي حقنةً طازجةً تبتعد بي عن اليقظة لأنزلق متحوّلاً إلى الحالة الأخرى. لم يكن العالم أبداً بهذا الغنى، أخّاذاً كما هو في أطياف الغفوات. صار يتّسعُ إلى ما هو أبعد وأكبر بكثيرٍ ممّا يمكن للعين اليقظة أن تحيط به؛ مَدَياتٍ لانهائية لمناظرَ وأشكالٍ

طبيعيةٍ لا يمكن توقُّعُها. وفي اللحظة التالية صورةٌ مُقَرَّبَةٌ لبَشَرةِ حَيَوانٍ ما أو وجهٍ بمسامّه وتجاعيده. رعشاتُ بَرِّية وجَزي، وهناكَ لم يكن بِوِسع الأنا أن تواكب. تأخَّرَتْ واختَفَتْ. وفي ذلك كَمُنَ نصفُ السّعادة.

لن أكونَ عديمَ الإنصاف. في اليقظة أيضاً هناك انقطاعاتٌ للكآبة والإحباط. كان ذلك جورج بالطبع، وبِيزِيت وأنييلا على الأخصّ عندما تُخصِّصانِ بعض الوقتِ للحديث معنا. لم ننظرْ إليهما بأيّةِ حالٍ كمجرد مخَفِّفَتَيْ آلامٍ، لقد كانتا أكثر من ذلك: آخر تجسُّداتِ توقِنا. قد يعاف أحدَنا الأملُ، والشّهيّةُ، طاقةُ الحياة، والبصرُ والسّمع. لكنّ الدّافعَ الإيروتيكيّ يمكث، إنّه آخرُ ما يموت. في هذا الصّدد كانت الممرضتانِ تعرفانِ كلَّ شيءٍ عنّا نحنُ الرجالَ الموسومينَ بالموت، فاستخدمتا معارفَهما بحنان وبراعة.

أقلّ حيويّةً من ذلك كانت زياراتُ القسّيسَينِ -رجل وامرأة-، لكنّها كانت تغييراً على أية حال، ولم يكن بوسع أحدنا القولُ أنّهما فَرَضا نفسَيهما. كنا ندردشُ لبرهةٍ معهما بكل سرور. ولا بُدَّ أنَّ تلكَ الأخصّائيةَ النفسيّةَ التي جاءتنا مرّةً كانت شخصاً طيباً، لكننا أوقفناها عند عتبة الباب، بكل اللُّطفِ الممكن، بعد أن أخبرتْ رفيقيّ أنَّ الأخصّائيينَ النفسيينَ هنا غيرُ مُلزمينَ بواجب الكتمانِ المهني. لذا فالقسّيسانِ كانا أفضل، وقد أبدى بُريةُ على الأخص اهتمامَه. أول من زارَنا كان قسّاً شاباً تابعاً للكنيسة السويدية، مرتدياً ثيابَ تمرينٍ وحذاءَ ركض، وحول عنقه بالإمكان رؤية ياقةٍ مُدَوَّرَة - هكذا ظننتُ، حتّى اكتشفت أنّه كانَ قميصاً داخلياً أبيض بَرَزَ من تحتِ قميصه. دلّتْ بعضُ النزوحاتِ في النِّسَبِ الطبيعيةِ للجسم على تمارين بناء العضلات، بِتَكتُّمٍ قطعاً مقارنةً بالهُلْك الذي بدا عَضُداهُ المنتَفِخانِ كأنّهما ابتلعا كتفيه. قسٌّ حداثوي بكلمةٍ أخرى، قسٌّ رياضيّ، وكانَ أسلوبُه حداثوياً كذلك. في يديه الهائلتينِ حملَ ثلاثةَ كتُبٍ من عادتِهِ توزيعها علينا.

«إنّها الترجمة الجديدةُ للعهد الجديد»، قال بفخر. «لغةٌ حديثة. اللغة التي نستعملها يومياً. أو على وجه التقريب».

«اعتراض»، تذمّرتْ. لا لأنني أردتُ جَرحَ الرَّجُل، ولكنّ هذا الأمر أثار حفيظتي

دوماً. «حتّى الآن كان نصّاً مُقدّساً. بلغةٍ إلهية، وليست تلك التي نستعملها يومياً».

ظلّ بشوشاً. «هنالك بالتأكيد تصوّراتٌ مختلفة. ولكننا لن نعقد ندوةً لاهوتية. ما أريدُ تقديمه هو حوارٌ ثنائيٌ لِمَن يجد منكم الرغبةَ في ذلك. ولعلّ بإمكاننا معاً أن ننظرَ بصفاءٍ أكبر إلى حالةٍ صعبة. سأوضّحُ بسرورٍ الرؤيةَ المسيحيةَ، وبإمكانكم بعد ذلك أن تقرروا ما إذا أردتم مواصلة الحديث».

بدا ذلك عرضاً شريفاً. لكنّ هارّي واصل قراءةَ الجريدة ولم يُرِدْ أن يُزعجَهُ أحد. «شكراً، ولكنّني أُحَبِّذُ أن لا أفعل. لقد فاتَ الآنَ أوانُ أمرٍ كهذا. هذا الآثمُ سيغفو ولن يصحو».

«لا فواتَ للأوانِ أبداً. لكنّ الخيارَ خيارُك».

عاد هارّي إلى جريدته، والمحاورة أُنهِيَت.

«أظنُّ رأيي كرأي هارّي»، قلتُ بلهجةٍ ألطف قليلاً من لهجته. «إن كان المرء قد قضى حياتَهُ متحررَ الفكر، فاللعنة إن لم يَتَحَلَّ بشيءٍ من احترامِ الذات فيتمسّكَ بذلك. لكَ أن تنتظرَ أبديةً سعيدةً في مكانٍ ما في مستقبلٍ بعيد. أمّا أنا، فإنني أقف هنا على عتبةِ الليلِ العظيم ولا أستطيعُ الإيمانَ بأبديةٍ أخرى. بالنسبة لي فإنّ هذه الأيّامَ أو الأسابيعَ الأخيرةَ ستؤدّي إلى نهاية كلِّ شيءٍ. نهاية الحياة الوحيدة. ولذا يَزِنُ المرءُ كلامَه. إن آمنَ المرءُ مثلَكَ فسيخسرُ الموتُ تراجيديّتَه. يغدو تافهاً. مجرّد فحص جوازات مرور. بالنسبة لي فالبُشرى شيءٌ آخر: وحدَهُ الحُرُّ من الأوهامِ هو الحرُّ حقّاً».

منذ زمنٍ بعيدٍ لم أُقل كلاماً بهذا الكمّ مرةً واحدة. بدا الكلامُ كأغنيةِ التَّمّ(15)، مثيراً للشفقة أكثر مما ينبغي. «كان ذلكَ رواقيّاً(16) وجميلاً..»، شَرَعَ القسّ (الذي لم يقل ما اسمه أبداً) في الكلام. لكنّ بُرية قاطَعَه، وكانَ يبلغُ قمّةَ بلاغتِهِ عندما يقاطِعُ أحدهم.

«لا تَكتَرِثْ بهذينِ الوَثَنِيّينِ!» كان متحمّساً كما لو انّهُ رأى فرصةً للقيام برهانٍ ما. «وثنيّانِ طَيّبانِ، إنّما على أيّة حال، أنا لستُ طيّباً ولا وثنياً، ولكنني خائف، أريد

الحديث مع قسّ. ولستُ أخجلُ من ذلك».

أضاء وجه القسّ بارتياب. ولقد فعل خيراً حينَ شَكّ، فسعادتهُ لم تدم طويلاً. «أنت بارعٌ حتماً وتتقنُ أشياءك»، واصلَ بُرية بحذرٍ أكثر قليلاً، «ولكنّني أُفَضِّلُ الحديثَ مع شخصٍ من الكنيسة الرومانيّة والقراءةَ في كتابهم المُقَدّس. أيمكنُك أن تُرَتِّبَ ذلك؟ البابا يباركُ سباقاتِ الخيل. وأمرٌ كهذا يتركُ أثره في لاعب توتو عجوز».

عندئذٍ خَفَضَ هارّي جريدتَه وأطلقَ ضحكتَهُ الفريدة، ضحكةً متقطّعةً وعنيفةً قد تدلُّ على السعادة لكنّها سعادةٌ كامنة في الأعماق. بدا قسُنا الشّابُّ مُتعباً فجأةً في أوقُرُولِهِ(17)، كما لو انّه أتمّ حصّةَ تمرينٍ طويلةً وكانت العودة إلى البيتِ صعوداً طوال الطريق. ولكنّ روحه كانت مثابرةً كذلك.

«لا أظنّ أنّهم يقومون بزياراتٍ للمشافي إنْ لم ينتمِ المرء لكنيستهم. انتظر، ربما يكون لدينا كاثوليكي في قسمِنا. هذا إن لم يكن مسلماً. هو على أية حال.. حسناً.. لا أدري -».

«أسوَدُ الرأس؟»(18) قال هارّي وواصلَ ضحكه.

«نعم. سأسألُ الممرضاتِ. وماذا أيضاً؟ بلى، إن كتابَهُم المقدّس الذي من عهد كارل الثاني عشر، مُحَدَّثٌ إلى حدٍّ ما. سيحتاجُ السّويديُّ المُعاصرُ قاموساً حتّى يقرأه. وفيه الكثيرُ من الخطأ في الترجمة. لكنّه، والحقُّ يقالُ، رفيعُ النبرة. كما كنتَ بصدد القول. ربّما يكونُ أفضلَ أدبيّاً. لكنّ الرسالةَ فيه تصبحُ أكثرَ غموضاً».

«أليسَ هذا هو القصد؟ فهو يمنح الرسالةَ هالةً». لم أستطغ منعَ نفسي. إنّما ما الغاية حقّاً!

تجاهَلَني. «ولكنْ بالتأكيد، بإمكاني أن أستحصلَ كتاباً مُقدّساً كهذا. ونستطيعُ مراجعةَ بعض المواضعِ معاً، إذا خذلك الأب».

كان ذلكَ لياقةً منه وسيُكلّفُه حتماً بعضَ الشيء. ولكنّ هذا أفضلُ من الرفض التّامّ الذي قوبلَ بهِ من قِبَلِنا، أنا وهارّي. نجاحٌ صغيرٌ على أية حال في الصالة ٥.

لم يكن ذلك كافياً على ما يبدو، لأنَّهُ لَمْ يعد أبداً. رُبَّما اكتشفَ أنَّه أخطأ بشأنِ الكتاب المقدّس. فقد تخلّى الكاثوليك آخرَ الأمر عن كارل الثاني عشر. وكيفَ تسنّى لي أن أعرفَ ذلك؟ جورج بالطّبع.

دارت هذه المحاورة بينما كان مونتي لم يزل حياً. أنا على ثقةٍ من أنَّ حضورَهُ خلف تلك البُردة هو ما جعلنا أنا وهارّي نُحجِمُ بكل ذلك الإصرار عن القسّ ودينِهِ الدّارِج. كُنّا شبهَ مُنصَرِفَينِ، مأخوذَينِ بشيءٍ آخر، بتأثيرٍ أقوى كانَ هائلَ القرب على أنَّهُ غير مرئي.

جاءت زيارة القسّ التالية، كانت امرأةً متوسطة العمر هذه المرة، بعد ما يقاربُ الأسبوع على رحيلِ مونتي عنّا وكنّا ثلاثةً في الغرفةِ فقط. رُبَّما لذلك، ولأنَّها كانت امرأةً، سار كلُّ شيءٍ على نحوٍ مختلفٍ كثيراً. بدأت مباشرةً مع بُرية. «أنَا-بريتّا»، قالت. «مرحباً بُرية. سمعتُ أنَّكَ نشيطٌ في التّيس والمراهنات. ولذلك فَلَكَ عندي هذا الرّهان. تصوَّرَ المفكر الفرنسي پاسكال أن بإمكان المرء المراهنة على وجود الربّ. إنْ راهنَ على كونه موجوداً وَرَبِحَ فهي الجائزة الكبرى. وإنْ خَسِرَ الرّهانَ فهو في الواقع لم يخسَر شيئاً. لستُ مُلِمَّةً بالتّفاصيل، فليسَ هذا نوعي من المسيحيّة، وأرى من الأفضل أن تَقرأ بنفسك. إنْ أردتَ فسأطلبُ من جورج أن يأتيكَ بنسخةٍ من الكتاب بالسويدية».

بدا بُرية ذاهلاً لكنَّهُ بدا مولَعاً كذلك، وأحسستُ بالغَيرةِ لأنني لم أفكّر في ذلكَ بنفسي. لم يمثّل لي پاسكال شيئاً، أما بالنسبة لِبُرية فكان إصابةً في القلب. لقد كنتُ مأخوذاً بانشغالي بدراساتي.

في اللحظة التالية غدا بُرية متردّداً. حَسِبتُ أنَّ فكرةَ قراءةِ الفلسفة هي ما أرعَبَتْه، وأنَّه كان يفضّلُ لو انَّه حصلَ على دليلِ استعمالٍ من آنَا - بريتّا التي من الواضحِ أنَّها أعجَبَتْه. ولكنَّني ولمرةٍ أخرى لم أُفِهِ حقَّ قدرِه. كان لِتَرَدُّدِهِ سببٌ آخرُ تماماً.

«اتَّفَقنا إذَن»، قالت آنَا - بريتّا التي أخفقتْ هي الأخرى في تأويلِ مشاعر بُرية المختلطة. كانت بالطّبع راضيةً عن الزيارة، فقد بَلَغَتْ مدىً أبعدَ مما بلغه زميلُها. «ماذا حلَّ بِزَميلِك؟» تساءلتْ. «وكتابِ بُريَةَ المقدّسِ الكاثوليكيّ؟».

«نحنُ فريقٌ واحدٌ هنا في هذه المحطة النهائية(19). أعتذر، فعلى المرء أن لا يقول ذلك». احمرّت ونظَرَتْ مرتعبةً إلى الباب.

«أظنُّنا نحتمل ذلك»، قالَ هارّي. كان مَرِحَ المزاجِ ذلك اليوم. «لكنَّ المسألةَ أصعبُ حين يتعلّقُ الأمر بالكتابِ المُقَدّس لكارل الثاني عشر. نحن لا نتسامح في ذلك».

«على أيّة حال، نحن كثيرون، لذا يمكننا أن نعوّضَ بعضنا البعض. سأحاولُ إيجادَ ذلك الكتاب المُقَدّس العتيق. أترككم على خير».

ذهبتْ باسمةً ولم تَزلْ مُحمَرّةً. كنّا في غايةِ الرّضا بها. فقد كانت بمثابة فعاليةِ وسطَ المونوتون الذي يلفّنا. بُرية، قلتُ لِنفسي، الذي سبقَ وراهنَ على بقائه زمناً أطولَ منّا كما لو انّه يتحصّن داخل عُلبَةٍ صغيرة. إنّه صغيرُ السّنّ وقويٌّ. ها هو يرى فرصةً سانِحَةً لخطفِ جائزةٍ أكبر بكثير. يا له من صيدا كنتُ سعيداً من أجلِه ولذلك فقد فاجأني تعليقه الأول.

«الرّهان على وجود الرّب... ولكنَّ وجودَ الربِّ ليس مشكلتي، فقد آمنتُ بذلكَ دوماً. المسألةُ هي ما إذا كانَ هو يؤمن بي فيمنحني الخلود. هذا الرّهانُ هو ما يهمني. ولكنَّ قلبي لم يطاوعني لأقولَ ذلك للجميلة آنّا - بريتّا. أظنُّها تستطيع مساعدتي عندما يحين الوقت».

ثُمَّ بدّلَ المزاجَ فجأةً؛ وكان هذا سرَّ سحرِه. «هذا إذا لم تكونا قد أخفتماها إلى حدّ عدم العودة طبعاً. بلا إلهيّتِكما. لا بُدَّ أنها تقولُ لنفسها يا لهما من عجوزَينِ مقرفَين. بلا دين...».

ظلَّ مُدّةً طويلةً يضحك لذلك ضحكاً خفيفاً، بينما أطلَقَ هارّي ضحكتَه الهائلة التي بَيّنَتْ عن شخصيّتِهِ أكثَرَ مما بيّنَتْهُ تلكَ العباراتُ المريرة التي يفضّل عادةً الإتيان بها. لا شكَّ في الأمر، لقد تمّتْ مساعدة بُرية وهارّي. لم أرَهما بهذا النّشاط والهيئة الخالية من الألم منذ وصولي إلى مخيّم القاعدة.

«حسناً»، قلتُ حين فرغنا من الضحك. ثمّةَ حاجةٌ إلى إطالةِ السعادةِ كانت تحوم

في المكان. «حسناً، أقترِح رِهاناً. أو بالأحرى ذلك الذي كان بُرية بصدده قبلَ غرقِنا في الضحك. فلنتراهن على الخلود. على مذهب پاسكال، وَدُون تزمُّت. بُرية الذي يؤمن بذلك، ضدّنا أنا وهارّي اللذينِ لا نؤمن. ما تقولان؟».

«وعربون الرّهان؟» قالا في الوقتِ نفسِهِ تقريباً.

«أن تؤمنَ وأنْ لا تؤمن. ونحن نراهن على حلاوة النصر. إذا ربح بُرية فسيهتف محتفلاً في نعيمه بينما هارّي وأنا نُسلَقُ في بحيرةٍ من نار».

«وإذا خسرتُ؟»

«الخلود. ذلك كلُّ ما ستخسره. أمّا نحنُ فربحُنا أننا سنتجنّبُ تلك الأبديّةَ المخيفة».

«أوكي. موافق».

«هارّي؟»

«طبعاً. السّحبُ في غضونِ أسبوعٍ أو أسبوعينِ. احسبا حسابي».

وضحكنا ثانيةً. ولكنّها كانت ضحكةً من نوعٍ آخر، أكثرَ اتّساقاً.

دامت السعادةُ بضعَ ساعاتٍ فقط. ثُمَّ تلاها حَدَثٌ سلبيٌ سأحكي الآنَ عنه.

كنتُ سأُفَضِّلُ - بناءً على ما أدرَكْتُهُ فيما بعد - أن أقضي الوقتَ الذي استغرَقَهُ الحَدَثُ في التواليت؛ على سبيل الاستطراد فقد كانَ جلوسي هناكَ عموماً شغلي الشاغل في هذه المرحلة من مرضي، إذ بدت الحياة بأكملها عبارةً عن أوجاعٍ مرحاض. لم يتساءل أحدٌ عن غيابي حين كنت أنسحب. ولعلَّهُ كانَ فضولاً سقيماً ما أبقاني هناكَ بالضد من إرادتي.

ما حدث هو أنَّ عائلةَ بُرية زارته وأبدَت تصرُّفاتٍ لا تنطبق البتَّةَ على وصف العائلة. ظهر أولئك الأقارب الثلاثة فجأةً - إنَّما ليس لأنَّ أمرَ مفاجأة بُريةَ كان مما سيمتعه، بل لأن السيدة، واسمها ليندا، لم تكلِّف نفسَها إبلاغَه أو إبلاغَ العاملين بمقدمهم قبل ذلك. قبل هذا الظهورِ غير المُنتَظَرِ، ظننتُ أكيداً أنَّ بُريةَ أعزب، فهو لم يذكُر أبداً أيَّةَ عائلةٍ له وحتَّى إذا كان يبدو لطيفاً بالرغمِ من احمرارِ مُعَيَّنِ سببُه البيرةُ وبالرغمِ من تلكَ الشبكة من التجاعيدِ الرفيعة التي تنبئ بالنهاية، فقد كانَ أيسَرَ عليَّ أن أتخيله في سولفالّا مع أصحابِهِ من أن أراه مع فتاةٍ في يورجوردن(20). ولكنَّ ها هم هنا الآنَ، ليندا وطفلان نصفُ بالِغَينِ، صبيَّةٌ وَصَبِيٌّ. ستكون زيارتَهم الوحيدة، فزيارةٌ أخرى سواها لم تكن واردةً في الحسبانِ حيث بدا بوضوحٍ مُفزِعٍ أنَّهم قد ينسوا منه وحذفوه من حيواتهم. كما بدت جليَّةً أيضاً تلك المسافةُ التي يأخذها الناسُ الأصحّاء غريزيّاً منَ الموسومينَ بالموت، حتى وإن تَمَّ ذلكَ في العادة بِتَكَتُّمٍ أكبر.

جلسوا على مسافةٍ من السَرير، عندَ الحافَّةِ السُفلى، لم يُمسك أحدٌ منهم بيدِه ولا لَمَسَه. ليس سوى أنَّهم نَظَروا إليه بمَلَلٍ أحياناً، وكأنَّه كانَ شيئاً غريباً ومُحرِجاً، «مُخزٍ» هي الكلمة التي قرأتُها في طلْعَةِ الصبيّة. ما من نظرة لُطف، ولا يدٍ على ذراعه أو وجنته، ولا كلمةٍ لم تتعلّق بالنقودِ أو بشيءٍ عمليٍّ آخر، بهم وبشؤونِهم اليومية التي لم تبدُ مُلِحَّةَ العجلة. في البدء تكلَّموا هامسينَ ولكنَّهم بعد قليلٍ نسوا تماماً خفضَ أصواتِهم. لم يُحَرِّكْ بُرية عضلةً واحدةً في وجهه، وكان في الغالبِ ينظرُ إلى الصبيّ، ابن عشرة أو أحد عشر عاماً كانَ يتلوّى غمّاً ولم يُرِدْ سوى المغادرة. آخر الأمر أخرَجَ جَوّالاً وبدأ يعبث به. نَظَرَتْ أمُّهُ إليه وابتسمت لأوّل مرة، ابتسامةً مُتَفَهِّمة.

من الذي لا يريدُ أن يكون في مكانٍ آخر، قالت الابتسامة، بدلَ الجلوس هنا لدى هذا الفاشل الذي ضيّعَ حياتَه في المراهنات وخذَلَ عائلتَه. هنيئاً لك أنّ لديك جَوّالاً تقتلُ به الوقت. أمّا أنا؟ أنا؟ **أنا!**

بعد ربع ساعةٍ لَملموا أغراضهم وغادروا دونما إيماءة توديعٍ حتّى. بذلت الصبية شيئاً من جهدٍ بِنيّةِ الالتفاتِ عندَ الباب كي تمنَحَ أباها نظرةً أخيرةً أو تلوّحَ رُبّما، لكنّ الأمّ جَرّتها مبتعدةً بها عن الأنظار. ثُمّ أُغمِضتْ، لياقةً أو جُبناً، حتى أتَجَنّبَ رُؤيَةَ وجه بُرية في هذه اللحظة. حينَ فَتحتُ بعد قليلٍ عينيّ رأيتُ هارّي يتظاهر بالنوم. أما ناحيةَ بُرية فَلَم أجرؤ على النّظَر، ولمدةٍ طويلة.

ما شهدتُه هنا كان كراهيةً خالِصة، لا تُشبِهُ في شيءٍ تلكَ المُلاسنةَ، على أشياء صغيرةٍ، التي تَحدُثُ عادةً في أغلب العوائل. كيفَ أمكنَ لرجلٍ يبدو محترماً مثل بُرية أن يوقِظَ احتقاراً كهذا؟ لا بُدّ أنّه قضى لياليه غائباً عن بيتِه، إنّما ما الذي تسبّب وأثّر في هذه الحالة؟ أكانَ هروبُهُ إلى عالم الصّحاب أولاً ثُمّ لاشعورياً إلى المرض والموت الآنَ السببَ حقّاً وراء هذا النُّفور المُرَكّز؟ أم رُبّما كانَ العكس؟ لَعَلّي أُبالِغُ قليلاً بسبب التعاطف مع صاحبي في المصاب، ولكن هذه المرأة، زوجة بُرية، كانت في نظري واحدةً من أولئك البشر النّادرين البائسينَ الذين لِفَرطِ برودهم يبدونَ كأنّهم جامدوَن في الزمن أو ميّتونَ مُسبقاً - توقّفتْ ساعتُهم، لا يتغيّرون، لا يُعَمّرون. إنّهم مثل عامل المناجم المحبوس في منجم فالو، ذلك الذي انشَلّ بعد خمسين عاماً ولم يصبه أي تغيُّر. أفكار كهذه كانت الأقربَ لي في حينه، وربما لهارّي كذلك.

لم أجرؤ حتى على تخمينِ ما كان بُرية يفكّر فيه. «اقتربي يا حبيبتي، هذه آخر لحظاتي!» لم تكن هذه الكلمات شيئاً يمكن له أن يوجهه لرفيقة عمره. من يستطيع قول ذلك لمن لم يعُد يُحِبّ، بل ربّما لم يفعل أبداً؟ لم نكن، أنا وهارّي، لنفتقدَ أحداً في لحظاتنا الأخيرة، لأننا ليس لدينا مَن نفتقده. الوحدة نوعٌ من المُخَدّر يروق للمرء في نهاية المطاف، وأسهلُ لفردانيّ عجوز أن يقفَ صامتاً إزاء الفضاءاتِ اللانهائيةِ، يفزعَ ويختفي هناك، كما سيتحتّمُ علينا جميعاً أن نفعلَ في آخر المطاف.

أصابني اكتئابٌ شديدٌ بسبب مشهد الرعب الذي تَجَسّدَ أمامي، ولطالما ترك

الاكتئاب فيّ ذلك التأثيرَ الذي يجعلني أغفو. وهكذا كان هذه المرة أيضاً (تغيّر ذلك مع الأسف فيما بعد). حينَ أفَقْتُ بعد ساعتي نومٍ - بلا أحلامٍ على غير العادة - لاحظتُ فوراً أنّ الجوَّ في الغرفةِ تغيَّرَ تماماً. بعد الكارثة الإنسانية التي وقعت، والتي لم يفتهُ منها شيء، أبدى هارّي وجهاً آخرَ تجاهَ بُرية. فإذا به الآنَ صديقٌ رؤوف، إلى أقصى ما سمح به عجزه. أما تجاهي فقد احتفظ بغِلظَتِه، مُضيفاً إليها بُرُوداً جديداً أظُنُّني استوعبتُ سببَه.

كانت أحداث ذلك اليوم وتَبَدُّلُ هارّي نواةَ ما سوف يأتي: الحدث الكبيرُ والهرب من مخيّم القاعدة. تَفَرَّقنا جميعاً لكنّنا أخذنا طُرقاً مختلفة نحو الهدف.

زارني جورج في يومٍ لم يكن يومَه المعتاد. لُطفٌ بالغٌ منه. كان يحمل معه كتابَي الموتِ الشَّهيرَينِ، المصريّ والتِّبَتيّ، اللذينِ كان يرى أنّ على الجميع أنْ يقرأوهما، لا أن يقتصر ذلك على مرضى المحطة النهائية الذينَ يريدون دليلاً لرحلتهم. لم يقل ذلك حرفياً، ولكنّني قد تبيَّنَ لي بوضوح أنّه كانَ مشغولاً بهذا المَبحَثِ مثلي. بشيءٍ من الحذر سألتُه إن كان قد وضع من تلقاء نفسه منهجاً دراسياً لمن هم في مثل حالتي بحيث سبق له مساعدة مرضى غيري بالطريقة ذاتِها. لم ينفِ ذلك ولكنّه أشار إلى أنني ربّما كنتُ حالةً خاصّةً. كيف ذلك، قلتُ لنفسي، ولكنني لم أواصل السؤال. تَبَيَّنَ فيما بعد أنّه اعتبرني مسكوناً بخوفٍ شديدٍ من الموت سيطرتُ بالكادِ عليه أمامَهُ وأمام باقي مُحيطي. لَعَلَّهُ رأى أعمَقَ مما رأيت. على أيّة حال فقد اتَّضَحَ أنّهُ كان يجوبُ المكتباتِ حتّى يستحصل «في الموعدِ» (الأمر الذي فاتَه مرّةً) تلك الكتب التي لا تتوفَّرُ في حوزته. شكرتُهُ بحرارة، فقد جعل حياتي التي كنت لا أزالُ أعيشُها أسهلَ بكثيرٍ. إلى أجلٍ غير مسمّى.

في الوقت نفسه أدركتُ أنّني كنت أسعى خلفَ الهروبِ والتعاويذ، لا المعرفة، في قراءاتي. التهمتُ أفكارَ الآخرينَ عن الموت حتى أنأى عن التفكير بموتي الذي، بهذه الطريقةِ، «دفنتُه في التحقيق». لم تكن فكرةً سَيِّئةً، ولكنّها لم تُعِنّي على طول الخط في مقاومةِ الكَرَب. كما لم يُعِنّي أن أُحاولَ ما يحاولُهُ البعض للسَّيطَرَةِ على الأمراضِ الخاصّةِ التي لديهم عبرَ استنزاف الاطبّاء بالأسئلةِ وطلب مُقترحاتٍ للقراءةِ **منهم**. لم أُحاوِلْ ذلكَ أبداً، لم يكن المرضُ ما أثارَ فضولي، بل الذي ينتظر عندَ نهايته، بعيداً عن الجَسَدِ المُعَذَّب. حتّى وإنْ لم يكن عندي أيُّ شكٍّ أبداً بالإجابة: لا شيء، إطلاقاً. وقد تَحَفَّظْتُ، بصمتٍ، نعم، ولكن بِحَزْمٍ، على اقتباسِ قرأتُهُ بصوتٍ مسموعٍ كي أُسعِدَ «بُرية المؤمن»: «مَنْ لا يؤمن بالرَّبِّ والحياةِ الأبدية، ليس ممن لا يؤمنون بشيء بتاتاً، بل ممن يؤمنون بكلّ ما اتَّفَق». أنا لم أؤمن بكلّ ما اتَّفَق.

تَخلُصُ الطبيعة، وعلى أُسُسٍ رصينةٍ في الاقتصاد الطبيعيّ، إلى أنّ نهايةَ أيّ فردٍ بيولوجيّ من رُتبَةٍ عُليا تعني نهايته كلّيّاً وإلى الأبد. ومن الصعب الاعتقاد بشيءٍ آخر. تَتَحصَّنُ الدّياناتُ الكبرى ضدَّ ذلك، كأطفالٍ لا يريدون النّوم. فليس المطرُ والحصادُ تلك الفكرةَ التّجارية، بل هما شكلٌ آخرُ من أشكالِ الاستمرار للحياةِ وللرغبةِ بعد

الموتِ، ويُستحسَنُ أن يكون ذلكَ ثواباً لسلوكٍ طَيِّب. كان هذا الرَّبطُ أكثرَ خُبثاً من أن أحتمِلَه فأبقيتُ على مسافةٍ بيني وبين الدِّينِ المُنَظَّم.

لم يَطُل بي الأمرُ قبل أن ألاحظَ أنَّ انشغالي بالموت - أيْ موتِ الآخرينَ وآرائهم بالموت - أوشك أن يتحوّلَ إلى هَوَس. صرتُ أرى رموزَ الموتِ في كل مكان، في كل الثقافاتِ وأنواع الفنون، في اللغة، وفي الأعراف والممارسات - ما عدا في ماضيَّ الذي كان بالتأكيد مكتظّاً بها، فهناك أشحتُ بِبَصَري. الحقّ أنني استوعبتُ أكثرَ فأكثرَ أنَّ التصوّرات عن الموتِ كانت واهية الصلة بالـمَواتِ كحقيقةٍ «مُعاشَة»، هذا من فعل الطبيعة. ولكن، ثمَّ ماذا؟ لقد بدّدَ الملهى الهائلُ في الدماغ أفكاراً أسوأ، وخفّفَ القلقَ وأعطاني من التشويق ما يكفي اللحظة. بالأَ أصفى - حالياً. أن تشعرَ بالحياة أكثرَ من جسدك، هذه كانت غاية الأمر.

لذا فالأحرى عدم **المبالغة** في التجريد. هنا خَيّبَ التُّبتيّونَ ظنّي، في البداية على الأقلّ. بدا كتابُ الموتِ خاصَّتُهم أوّلَ الأمرِ ضبابيّاً وعلاجيّاً، ذا قواعد سلوكٍ حصيفة كما لو أنّها مُقتَطَعةٌ من مجلّةٍ نسائية. ولكنني اعتَدتُ الأمرَ حتّى صرتُ بعدَ حينٍ أُكِنُّ له نوعاً من الاحترام. توقّفتُ على الخصوصِ عندَ فكرةِ أنَّ الموتَ حسبَ هذه التعاليم لا علاقةَ لَهُ بالأنا، إذْ أنَّ الأنا تكونُ قد تلاشت بالفعل في لحظةِ المرء الأخيرةِ - بكلِّ ما في عالمِ الوَهمِ الذي بَنَتهُ لِنَفسِها. حقّاً؟ إذَن فَما الذي له علاقةٌ بها غيرُ الجسد؟ بالنسبة لي فقد كان مرورُ الزَّمَن هو هيكل الأنا نفسه، وبالموتِ يزولُ الاثنان. وإذنْ فأينَ تختفي الأنا، طِبقاً للبوذيةِ في التُّبَت، مباشرةً عَقِبَ تلاشيها في «نور الواقع» لِتعيشَ إشعاعَ النّور بمختلف الألوانِ وعديدِ رؤى «الكائناتِ الإلهيّة الرحيمة والسّاخطة»؟ نعم، تلك هي المسألة، وقد عنى التعليق بجفوة أنّ الأمر عائدٌ للفرد فيتدَبَّرَ أمرَهُ على أكمل وجه. وكَعَونٍ مُهِمٍّ على الطريق فإنَّ من الواجِبِ إعلامُ المُحتَضَر بِأنْ «الآنَ حانَ موتُك». شكراً جزيلاً، لكنَّ ذلك كان شديد الغرابة بالنسبةِ لغَريبٍ بسيط في مرحلةِ المحطّةِ النّهائية.

شعرت بأن كتابَ الموتِ المصريِّ أقربُ إليّ. هنا أيضاً حشدٌ من الآلهة، لكنَّ أكثرَها، على خلافِ الآلهةِ التُّبَتِيّة، بدا منهمكاً بإعانة المَيتِ، حمايتِهِ وتطهيره من أجلِ حياةٍ

أبديةٍ عندَ «النّيلِ السّماويّ». كائنٌ شيطانيّ، أبوفيس الذي بهيئة ثعبان - «تِنّين الظلام» وعدوُّ الشمس - يُضادُّ قوى الخير دون هوادة. دونَ أن يُفلِحَ لأن «قِطّة النور»، إحدى شخصيات رع إله الشمس، تقطع رأسَه حالَما يُحاول فعلَ أيّ شيء. حتى إلهة الحرب نيت هي قوّةٌ حامية، وإلهةُ موتٍ عندَ نعش أوزيريس. لكنّ الطُرُقَ عديدةٌ لعبورِ أزمة الموتِ والولادةِ من جديدٍ، خمسمائة وأربعونَ إلهَ موتٍ كانوا يعملونَ في هذا المجال، ناهيكَ عن جميع الأخيار، فَتصبح النهاية سعيدةً في الغالب. كان ذلك مُنَشِّطاً ومُحَفِّزاً للغاية إضافةً إلى أنّه قد جُسّدَ بِفَنٍّ عظيمٍ واسعِ الخيال، لا بفنٍّ تخديريٍّ رخيص كالتِّبتيّ. من بين أشكال التَّجَسُّد والحلول الحيواني استوقفني على الخصوص صقرٌ يمثّلُ روح الميت وبخفق خفيفٍ لجناحيه يحوم فوق الجسد الهامد بينما ينتظر أن يُحَنَّط. بالتأكيد، كان المصريون مهووسينَ بالتَّحنيط، إنّ الأمر متعلّقٌ بالوصول بسلامةٍ إلى النيل السماويّ، فَلِمَ لا؟ - ذلك أفضل من الذهابِ إلى القمر! أصل فَيضِ الإغريق، كما عرفت، هو ينابيعُ مصر السحريةُ، فقد عرف أورفيوس الخُرافيُّ أسرارَ أوزيريس ولفَّ نفسَهُ بِـ «عباءة النّور» في مدينة الآلهة منف. كان للبطل جلجامش، الذي بحث عن صديقه في مملكة الموت، أرومة عندَ النيل ومروراً كذلك بأخيل سريع القدمين، البطل النموذجيّ للغرب، ابن الإلهةِ ثيتس الذي مات شاباً وعنى موتُهُ لمَّ شملِهما الحميمَ...

هناكَ تقريباً أفلت الكتاب من يدي، وَجَدَتْهُ بِيزيت على الأرض بينما أنا نائم. كان ذلك أوائل سبتمبرٍ ساخن، الأمر الذي لم يكن نافعاً لا للقراءة ولا لليقظة أثناء النهار. ربّما شيءٌ حديثٌ في المرة التالية، تلك كانت آخر فكرةٍ صافيةٍ لي، ربما سيوران الذي يُعجِبُ جورج... أم لعلّه كان كانيتّي؟ ثم جاءت إحدى اللحظات التي تأتي في الطريق إلى النوم والتي دخلتُ عندها، حسبما رأيت، في وعيٍ أكبرَ من وعيي، مرةً أخرى كان هناك أُفُقٌ هائلٌ مفتوح امتدَّ إلى ما هو أبعدُ وأقدمُ من خبرتي في الحياة. لبضع لحظاتٍ خُيِّلَ لي أنني أُقاسِمُ كلّ هذا مع الأجيال السابقة. رأيتُ بأعينِ الموتى، رأيتُ شمسَهم تُنير. منظرٌ خلّابٌ وجليُّ الوضوح في كل تفصيلة، حتّى إذا كانَ مَرَّ سريعاً واختفى. أن يفقد المرء نفسَهُ كي يستشرِفَ ببصره كلَّ شيءٍ ويشارك فيه - كنتُ سأعيشُ ذلكَ لعدّة مرّات بعدُ. ولكنّني لم أجد أي إحساسٍ بالقوة في ذلك،

مجرّد وضعٍ سلبيٍّ مُشَوَّش قليلاً. لقد أُخِذْتُ إلى جَوٍّ جديد وعرفت أنّ المرض لم يكن ما أعطاني تلكَ التجربة، بل الموت، النهاية، دُنُوُّها الثابت.

مباشرةً بعدئذٍ، دونَ مرحلةٍ انتقالية، تَبِعَ ذلك إحياءٌ مُضاف، حلم عاودني طوال الحياة. أحلم أنني أتّصل هاتفياً بأبي، الذي أعرف أنّه ميت ولم أرَهُ مرةً أبداً، ليردّ عليّ شابٌ هو نفسه أبي وليس لديه ابنٌ بَعدُ. حياتي لم تبدأ بعد، يقول الحلم عوضاً عني، ورغم ذلك فها هي تنتهي. يملأني هذا بحماسٍ غايةٍ في الغرابة حدّ إيقاظي.

وقفت بِيزيت قُربي وكتابي في يديها. «كنتَ ترفش، أيُّها الكريه»، قالت مبتهجة. «ذلك تقدر عليه. كذلك تستطيع قذفَ الكتب. ألا تبرد دونَ اللحاف؟».

«ليس بعد»، قلتُ سكراناً من النوم. «شعورٌ طيب. سريرُ موتٍ رائعٌ في دفء الصيف».

رأت بِيزيت وصاحباي الأمرَ مُضحكاً، أما أنا فبالكاد انتبهتُ لما قلت. ضحكوا وضحكت معهم دون أن أعرف السبب. لكنّ السّعادةَ تلعثَمَت. بالبابِ وقفَ رجلٌ لم يضحك. لم أرَهُ من قبلُ أبداً. كان ضئيلاً ونحيفاً، ذا شعرٍ داكنٍ لامع ويرتدي سترةً جلديةً صفراء متوسطة الطّول. بدا مشؤوماً إلى الحدّ الذي أسكتَ ضِحكَتَنا. أومأ لِبيزيت، ولكنّها وقفت ساكنةً، ولم تُبادلهُ الإيماء. مَسَحَ الرجل الغرفةَ بنَظَرِهِ كأنه يبحث عن أحد. أو كلّا: كأنّه يَجرُدُ مساحةً معينةً كي يُفرِغَها أو يُعيدَ تأثيثَها. تَمَهَّلَت النّظرةُ عند المكانِ الشاغرِ الذي خَلَّفَهُ سريرُ مونتي، حيث لم يُؤتَ بِغَيرِه بعدُ. بدا الرجلُ كمن يتَرَقَّبُ حدوثَ مشكلة، تلكما الشّفتانِ الصغيرتانِ المُزَرَقّتانِ تحرّكتا بضعَ مرات. كان كمن لم يَرَنا. ثُمَّ أومأ لنفسِهِ، لا للمُمَرِّضَةِ هذه المَرّة، وتحوّل تماماً وغادر. نظرنا جميعنا إلى بِيزيت متسائلينَ، لكنّها شخرت وتركتنا دون أن تُهَدِّئَ قلقَنا.

بعدها مباشرةً رأيتُ عبر البابِ شخصاً آخرَ لم تسبق لي رؤيته من قبلُ، امرأةً ترتدي البياض مَرّت بصحبةِ مولّر. سمعتُهُ يجيبُها قائلاً «yes, yes». طبيبةٌ ألمانية مختصّةٌ في زيارةٍ دراسية حسبما علمتُ فيما بعد. ومختصةٌ بماذا؟ بلى طبعاً، بنا نحن المحتضرين. ثاناتولوجية(21)، أستاذة من ألمانيا. وهكذا كان الجميع في أماكنهم من أجل اللعبة النهائية، هكذا كنتُ أرانا أحياناً، كبيادق في لعبة شطرنج.

هكذا ثانيةً. متيبّساً، وأكثرَ إنهاكاً هذه الليلة من أن أواصل برنامجي للقراءة. اقتربَ مني وجهٌ لا نظرةَ فيه، لامَسَ خدّي. ثم الوجوه الأُخَر. عجيبٌ أمرُ وجوه النّومِ هذه، فهي نفسُها تبدو نائمةً. العيونُ مُغمَضة أو مكسوة بغشاءٍ أبيض، لكنّ الأفواهَ تتحرّك دونَ أن تُفتَح، بل وتبتسم أحياناً، وكأنّها تتحدّثُ إلى الداخل، تُمَقْمِق(22). لم يحدث أبداً أنّ الوجه نفسَهُ يتكرر مرتينِ، وواحداً بعد الآخر دائماً وغريباً عنّي تماماً، ولم يذكّرني أحدٌ منها بشيءٍ سوى التماثيل النّصفية الرومانية التي شاهدتُها مؤخّراً. وها أنا تزورني يومياً تقريباً هذه الوجوه الطينية اللون، التي كانت على الأقل حيّةً إلى حدٍّ ما. أكانَ ذلكَ إشعاراً ما، أهذا هو الشكل الذي سأبدو عليه يوماً ما، مُغمِغِماً إلى داخِلِ جسدي وبعينينِ عمياوين؟ مع الدُّنُوِّ مِن اليقظة ظَهَرَتْ صورةٌ من الكتابِ الذي تَصَفَّحتُه آخرَ مرةٍ قرأتُ فيها، وكان موضوعه الموت في الفنّ. كانَ تمثالاً يونانياً من قورينة(23) في شمال أفريقيا، بسيطاً، أثريّاً، يُجَسّدُ ديميتر، إلهة الخصوبة والموت والبَعث. كان جسدُها المرمريُّ مُمتلئاً وأمومياً، مستقيماً وثقيلاً وذا سطوة. كان شعرُها السّميكُ مرفوعاً بهيئة تاج، ولكنّها بدلاً من الوجه كانَ لها سطحٌ أملَس، كنافذةٍ صمّاء أو بابٍ مسدود. ها هي أمامي الآنَ، أفضل صورةٍ عندي للموت، فقد أخبرتني أكثر مما فعلت المومياوات ورقصات الموت والجماجم المُكَشّرة. هو المسار الأكثر إمتاعاً للطبيعة، الذي يمنح النّسلَ ويقتلهم بالرضا البارد عن النّفس ذاته. هذا الوجه اللا ملامحَ له، كان لحظةَ الموت، اللقاء مع النافذة الصمّاء، بينما صور القانيتاس(24) المسيحية المُبَهْرَجة لا غايةَ لها سوى الترهيب حتّى الانكسار والخضوع. هكذا صرتُ أُفَكّرُ وأنا أشدّ يقظةً مما كنتُه لزمنٍ طويل.

لقد اخترتُ هذه الديميتر، فقد كانت ستستقبلني بتغاضي الأُمّ. كذلكَ فكّرتُ بِبيزيت بأمومَتِها ولَمسَتِها الحانية التي بلغتْ غايةَ التّعلُّقِ بها. لَم تَختَلِف هيأتُها الضخمة عن هيأةِ الإلهة، لكنّ ميزَتَها أنّها كانت حيّةً وذاتَ وجهٍ بشوش وشعرٍ أجعدِ(25) نازلٍ على جبهَتِها كما الصبايا. في الوقتِ نفسِه كان في كيانِها شيءٌ دلّ على خِبرَةٍ بالحُزن والقسوة، أحسستُ به لدى الإلهة كذلكَ وأنا أنظُرُ إليها. عبرَ ذلك اللاوَجهِ الرّماديّ تأجّجَ سحرٌ منبعه قوّةٌ مخبوءة في الواقع، هو السحرُ نفسُهُ الذي شعرنا به تجاه صديقنا مونتي خلفَ خبائه الأخضر. الإله، الموت - نحنُ لا نواجهُ

هذه القوّةَ أبداً، فهي تتقدّمُ وتتلاشى بغيرِ وضوح ثمّ تختفي بسرعة. فكّرتُ بنا نحنُ الثلاثة الرّاقدينَ هنا وعمّا قريب لن يكون لأيٍّ منّا وجه، أو جسد.

صوتٌ في الظلامِ أخرَجَني من تأمّلاتي. خاطبني هارّي، لاحظَ حتماً أنني مستيقظ، بينما بُرية يشخر. كان الشخير همّاً كبيراً عندما بَرّحتني الأوجاع وقضيت الليل مع الأرق، ولكنّ قلبي لم يُطاوعني على قولِ شيء، وما كان ذلك ليجدي نفعاً على أية حال.

«لديّ الكثيرُ من الألم حالياً. أيمكن أن نتكلم قليلاً؟» قال هارّي. كان صوتُهُ خفيضاً ومضغوطاً.

«أكيد، ولكنْ هل ناديتَ السّستَر؟».

«لستُ أتألّم إلى هذا الحد. لا أريد تعاطي المخدّرات دون حاجةٍ مُلِحّة».

«ما كنتُ لأقلَقَ بشأنِ ذلك».

«تستطيعُ قولَ ذلكَ وأنت من عاش حياةً بيضاء».

«ما عُدتُ كذلك. وأنا نفسي أتألّم». كانت كذبةً بيضاء. «سأنادي. فيحصل كلٌّ منا على حقنة ونتكلم بعد ذلك. حينئذٍ تزداد المتعة».

«لا شكراً، لا تحسب حسابي. احكِ لي شيئاً عوضاً عن ذلك. مِن حياتِكَ البيضاء. لستَ مُضطَرّاً إلى الفُكاهة».

«أوكي. ستسمع شيئاً فظيعاً إلى حدٍّ ما حدثَ منذ ما يقارب الخمسينَ عاماً. لم أُخبِز أحداً به من قبلُ أبداً ولكنني فكّرتُ بِهِ كلَّ يومٍ تقريباً. لم يحدث ذلك لي، ولكنني رأيته يحدث. كانت طعنةً نجلاءَ في الروح. ما زلتُ أحلمُ به حتّى الآن، الحلم نفسه، أو هو هاجسٌ أكثرُ منه حُلماً. قصيرٌ جداً، ينتهي في غضونِ ثوانٍ. أهرُبُ فيهِ صاعداً مُنحَدَراً في غابة نحو ثكنة مُحَصّنة. لا غير. إنّما يا لِمَعرفتي بهما، أعني ذلكَ المُنحدَرَ وذلكَ المنزل في قِمّتِه».

«إلى صُلبِ الموضوع. أكشن، پليز!»(26).

«انتظر قليلاً. خلفيّة أولاً. كما قُلتُ سابقاً، حسبَ ظني، أو رُبّما لم أفعل، فقد عملتُ في المسرح. في وظائف مختلفة. في شبابي كنتُ ممثلاً، تخرّجتُ من مدرسة المسرحِ في يُوتِيبُوزي(27). حصلتُ أوّلاً على عملٍ في مسرح المدينة. لم تَسِر الأمور كما ينبغي في الموسم الأول، ولكنّهم متفضّلينَ فعلاً أعطوني منحةَ سفر، كي أذهب إلى باريس وأدرس المسرح؛ رُبّما أرادوا التّخَلُّص مني فترةً لِيَرَوا ما إذا كنتُ سأتطَوّر. على أيّةِ حالٍ فقد غادرتُ وقضيتُ وقتاً طيباً هناك. في ذلك الوقت تَعَلّم الكثيرُ من الفنّانينَ الشبابِ اللغةَ طبعاً، فغالباً ما كانت تلك وِجهَة المرء. ناهيك عن إعجابهم بالسينما الفرنسية».

«أعرف، فقد عايشتُ ذلك أيضاً. ولكنْ ابدَأ الحكايةَ الآنَ - أقصدُ قبلَ أن أغفو».

«ها قد فضحتَ نفسَك. إنّما أنت تريد النّوم».

«أعني قبلَ أنْ تغلبني الإثارة حتى تبرز مِنْ عجيزتي، إن لم يكن مِنْ سواها».

«إذاً سأواصل. كنتُ قد شاهدتُ عروضي المُفَضّلَةَ وأوشِكُ أن أعودَ إلى الدّيار. في اليوم الأخيرِ أردتُ استنشاقَ بعض الهواء النقيّ ورؤيةَ شيءٍ مُغاير، فذهبتُ في رحلةٍ إلى فونتَينبلو(28). إلهام اللحظة، لم أُقَرِّر الوجهةَ إلا عندَ المحطة. أتذكّر الرّحلَةَ عبر الغابةِ التي كانت لم تزل خضراء من أثر الصيف، ولا أكادُ أتذكّر القلعةَ والمتنزّه، ما خلا انطباعاتٍ غائمة. ثُمّ خَرَجتُ أتمشّى في الغابة، غابةِ فونتَينبلو، وهناك، بعد مسافةٍ خاليةٍ لما يقاربُ الكيلومتر، تتجلّى الذاكرةُ بِحِدّةٍ فظيعةٍ لم تبهت أبداً. سرتُ هناك في الغابةِ الجميلةِ مع أطياف أدواري وشعرت بالسُكنى والسّكِينة في العالم. فإذا به فجأةً يهجم ويطردني من سياقاتي.

نعم، يا هارّي، سأدخلُ في صُلبِ الموضوع. لعلّ الوقت قد حان الآن. ولكنني ألاحِظُ أنني أُفَضّلُ تجنُّبَ الأمر لو أنّ ذلك بالمستطاع. حسناً، سرتُ مبتعداً مسافةً عن الطريق، على منحدرٍ في الغابةِ تناثر القَيقَبُ حوله، مستمتعاً بالشميم والسّلام بطريقتي الميلانكوليّة(29). فإذا برجلينِ يظهرانِ في مدى رؤيتي، ربما على بعد خمسينَ متراً، قادمين كُلّاً من جهته ويتحركان نحو بضعهما البعض، أحدهما أسرعُ،

ويغيبانِ عن البصر لمحاً خلفَ الجذوع. لا يبدو لي أنّ أحداً منهما يقول شيئاً أو يُحَيّي، بل لا يفعلانِ سوى تركيز النظر على بعضهما البعض، أما أنا فلا يرياني. ثم أسمع إطلاقَ نار، لا أرى سلاحاً أو ذراعاً تُرفَع، لا أعرف من يُطلِقُ النّار، ولكنّ الرجلَ الأقربَ إليّ يسقط على الأرض ويرقد بلا حراك، الآخرُ يبتعدُ بخطىً واسعة متعرِّجة، نازلاً المنحدَرَ متصدّياً له بذراعيهِ المرفوعتينِ في الهواء، ويختفي عن البصر - ودونَ أن يكون قد رآني على ما آمل. أتقدّمُ ببطء نحو مَن سقط، لديه ثقبٌ داكنٌ في جبهته، إنّه ميت. رميةُ مُعَلِّم، أول فكرةٍ خطرت لي. لقد رأيتُ جريمة قتل، فكرت بعدئذ. لم أستطع إيجاد سلاح، لم يكن نزالاً شريفاً. لم تكن للميت أية فرصة.

لم أشعر أبداً بالوحدة حدّ القنوط كما شعرتُ في تلك اللحظة. الغابةُ التي كانت وادعةً لتوّها، أضحت مملكةَ موت. مملكة موتٍ شمالية، ذلك هو الشعور الذي خالجني. الجذوع العارية، الضوء الرماديّ، النّبتُ الأجرد. صامتة كما في السابق، ولكنّه صمتٌ من نوعٍ آخر.

الابتعاد عن الميت، تلك كانت غريزتي التالية، والابتعاد عن القاتل. باضطراب وتعثُّر هَزوَلْتُ صاعداً نحو قِمّة المنحدر، حيث رأيت لعجبي بناءً، شرادِقاً منخفضاً أو ثكنةً من ذلك النوع الذي يُنشَأُ لأغراضٍ اجتماعية. رُبّما هو مركز للشباب أو نادٍ - أو كانَ كذلك، لأنني حين اقتربت مصدوماً وحائراً، وغايتي أن أحتمي في حال عادَ القاتل، اكتشفت أنّه كان قشرةً خاوية، كانَ البناء بأكمله مُخَرَّباً، بعض أجزائه محروق، جميع نوافذه مُكَسّرة، دواخله مكشوفة، كان فارغاً ومعتماً. قبل نصف ساعةٍ فقط كنتُ أتجوّلُ في قلعة فونتَينبلو، بأثاثها فاحش الثراء، بعجرفتها وشدّة صقلِها، وها أنا أعود إلى العالم الحديث، العالم الحقيقيّ، ولكنّني في الوقت نفسِهِ كنتُ خارجَهُ قانطاً عديم الرجاء».

نَدَّ نخيرٌ من السرير المُقابل.

«أنا مُصغٍ بلهفة، كما قلتُ لك. لكن، أيمكنُك الاختصار قليلاً؟».

«لا أستطيع أن أحكي سوى بطريقتي. يمكننا أن نواصل في مرة أخرى. هل تتألم كثيراً الآن؟».

«نعم، ولكنْ أكمِلْ فقط».

«شكراً. كنت أوشكت القول أنني وقفت هناك وحيداً ومنبوذاً أنظرُ إلى داخل عالم حدثت للتو فيه حادثةٌ استعصى عليّ فهمها. وحدي أصبحت شاهداً عليها رغم أنني أكثرُ البشر انعدامَ صلةٍ بالأمر(30). شعرتُ كأنّ ذَينِك الاثنين، الضحية والقاتل، كانا بطريقةٍ ما متفاهمينِ مع بعضهما البعض، كأنّهما يؤديانِ مشهداً في فيلم ما. لا وجودَ لِـ «كنتُ وحيداً ولامَرئياً» في عالمهما. كانا موجودينَ في العالم، وكنتُ خارجه وغيرَ حقيقيّ. لو كنتُ كشفتُ عن نفسي، حتى إذا كان الوقت قد فاتَ على منع الجريمة، لَكُنتُ عاودتُ الدخولَ إلى الواقع لأصيرَ إنساناً ثانيةً. هل تفهمني؟».

«كنتَ ستصيرُ إنساناً ميتاً. الضحيةَ التالية. هل كان الأمر تصفيةً بين عصابات؟».

«لا أعرف. بدا عليهما أنّهما أكبر سنّاً من ذلك. وهندامهما كان يوحي بالبورجوازية. رجّحتُ أكثرَ أن تكون للأمر علاقةٌ بحرب الجزائر. فقد أوشكت الحرب الأهلية أن تندلع في فرنسا في ذلك الوقت. العديد من جرائم القتل ومحاولات الاغتيال. جماعاتٌ وجماعاتٌ ضدّ تخترق بعضها البعض. على أية حال، لقد عذبني هذا الأمر على مرّ السّنين. لقد خذلتُ الذي مات وكذا مسؤوليتي كإنسان. كان الأحرى بي أن أبلغ عمّا شاهدت. ولكنني كنتُ في العشرين من عمري، خائفاً، وأريد العودة إلى الديار. هذا دفاعي الوحيد عن نفسي».

«وهو يكفيني. أليس لديكَ ما هو أسوأ فيؤنبك ضميرك لأجله؟».

«بلى طبعاً. ولكن هذا الأمر قد حَفَرَ عميقاً. أغلب الظن لأنّه مختلفٌ عن كلّ ما عداه في حياتي. غيرُ قابلٍ للمقارنة. يقف هناك مثلَ مونوليث(31) ويُلقي بظلّهِ الطويل. تجربة شاذّة، بالتأكيد. ولكنّها عاتية - ربّما لهذا السبب تحديداً».

«مبالغة في التّوتّر يا فتى. إنْ تَسألني فقد فعلتَ الصّواب. المتّهم بريء. وتصبح على خير الآن».

«هناك تكملة. ولكنّ بإمكانها الانتظار. تصبح على خير».

«أكاد لا أقوى على احتمال الصحو». تنهّد ولم يزد عن ذلك في تلك الليلة.

كان تَهَكُّمُهُ غايةً في الحياء في ظلِّ الظروف المحيطة. الأسوأ أنّه لم يفهمني، وقد أحزنني ذلك. كنت أعرف ما يريد الألم قولَه لي، لكنّ ذكراي من الصبا، وهي صدمة نفسية بالغة الأثر بالنسبة لي، كانت في عين هازي تُرّهةً بالمقارنة مع الكارثة الشخصية التي طَوَّحَتْ بهِ خارجَ مسارِه.

رُبّما كان هارّي على حق، فلديه عصا كشّافٍ(32) واثقة. كان في هَوَسي بِقِصّة فونتَينبلو نوعٌ من المبالغةِ والحالة المَرَضِيّة. وكما أسلَفتُ، فقد أثقَلَتْ ضميري أمورٌ أسوَأ، تشترك جميعاً في السّماتِ ذاتها إهمالاً وخذلاناً وفساداً أخلاقياً. كان هناك استرخاء إزاء الآخرين - عندما كنت أفتقد الشَّغَفَ دافعاً لي - لم أستطع إغفالَه. انتَحرَ ثلاثةٌ من أقرب أصدقائي. هذا كثير. يتركُ ظلّاً قاتماً عميقاً. ربّما كان بإمكاني منع أحدهم، مؤقتاً على أية حال، ولكنّه على الأغلب كان الوحيد الذي لم يُرِد أن يُمنَع. مرّةً هربتُ من صديقٍ راقدٍ على سرير الموت، لَمْ أطِقْ ذلك جسدياً؛ كان هناك بديلٌ لي ولكنّ البؤسَ ظلَّ نفسه. عندَ سرير موتِ أمّي غفوتُ - كانت في الحقيقة مُخَدَّرَةً ولم تستعذ، كما يحلو لي أن أعتقد، وعيَها أبداً. ظاهراً فأنا أسعى إلى هروبات متكررة لأطول فترةٍ ممكنة، وكل هذا يرفع صورةً لي يصعبُ تَحمُّلُها حيث أقبع الآنَ في حقّى هلاكي الذي يمضي قُدماً بلا هوادة.

ورغم ذلك فِتلك الحادثة البعيدة في الغابة الأجنبية، في «مملكة الموت الشمالية»، هي التي تَفحَتني أشدَّ المَخن. كلّما زاد تفكيري بذلك كلما زادت غرابته. تلك النسخة التي سمعها هاري كانت مبتورة، هو الذي طالب بذلك، ولذا فلم يمنحني الاعترافُ أيَّ انشراحٍ للصدر، لا بُدَّ لي من مواصلة التّبكيت. إنَّ ما توصّلتُ إليهِ حتّى الآن، وربما لن أصل إلى ما هو أبعد، هو أنَّ عيوبي بشرية، ولكنَّ رد فعلي، هلعي إزاء جريمة القتل والمقتول كان شيئاً آخر. وكيف لي الآنَ أن أوضّح ذلك؟ لم يكن شعوراً بالذنب قدرما كان شعوراً بالنَّبذ. سمع هارّي قليلاً عنه ولكنّه لم يشأ أن يفهم، كان لديه ألمٌ ومحنةٌ سوى ذلك عليه مناضلتهما. حسناً، حيث كنتُ واقفاً لحظتَها في الغابة قبل خمسينَ عاماً ورأيت ذلكَ يحدث دون أن أفعل شيئاً، **دون ردّ فعل**، صرتُ شيئاً في نظري أنا. ما عُدتُ إنساناً حينئذٍ، جزءاً من الجنس البشري. كنتُ شاهِداً، لكنني كنتُ بارداً وسلبيّاً في حضوري كالأشجار والمنحدر والخَضار المتناثر؛ صَمَتنا معاً وتَصَلّبنا إزاء الدراما الإنسانية. بالطبع كنتُ خائفاً من أن أُقتَلَ، ولعلّ ذلك كان ليحدث إن كنتُ كشفتُ عن نفسي، لكن الأعذار العقلانيةَ لا تنالُ من قناعةٍ حفرتْ عميقاً، فالغريزة الأخلاقية تسبق الفكرة. أمام هاري قَدّمتُ الأخيرةَ، الخذلانَ في الإبلاغ عن الجريمة، الذي كان جُرمي الملموس، ولكنّه تافه ومفهوم؛ كنتُ ببساطةٍ

أريد أن أتجنّبَ إعادةَ حجز تذكرة العودة وتعقيدات الدوائر الرسمية. ولعل خوفاً ضئيلاً كان هناك أيضاً من أن يُقبَضَ عليّ كمُتّهم.

مفهومٌ كلُّ هذا، ولكنّه لم يكن السببَ في الواقع، لهذه التراوما إن حقّ لي أن أسمّيها كذلك، بل ما كنتُ بصدده توّاً. وها قد أدركتُ أخيراً ما كان هاجساً دائماً لي: أنني في الأساس لم أرغب في إضاعة ذلك. أردت الاحتفاظَ بهذا الحلم الشرّير عن النّبذِ مشهداً محوريّاً مُظلِماً في حياتي كبالغٍ بعد نزق الطفولة. من هذه النقطة السوداء في مملكة الموت استَمدَدتُ قُوتِي، كما عَزّزَت الأشباحُ في هاديس أنفُسَها بالدم للخروج من الحفرة في مرج بيرسيفوني. الحِفاظ على هذا الحلم الشرير، أن لا أفجّرَ قشرَتَه وأدَعَ الواقِعَ يُخَفّفُه؛ لقد قادني ذلك بلا وعيٍ، بلا وعيٍ إلى الآن.

بلى، لقد ذهبت إلى باريس مراتٍ عديدةٍ منذئذٍ. في سفرات حُبٍّ ولشؤون مسرحية. مرةً وقفت عندَ محطة ليون(33) أنظرُ إلى القطار المتجه إلى فونتَيئنبلو. لكنَّ شيئاً ما منعني من أن أستقلّه.

عاد هارّي إلى حكايتي مرّةً واحدةً. فجأةً صدَحَ بالقول، كمن يُخرِجُ رأسَه من سيلِ أفكار: «ذلك الذي حكيته، عن شعورك بالنّبذِ عندما خذلتَ الرجلَ الميت كما قلتَ - ما الذي يمكنُ قولُه عني إذَن وأنا من أبقيتُ نفسي خارِجاً طوال حياتي تقريباً؟ هل فكّرتَ في ذلك؟».

لم أفعل. لقد نظرتُ إليهِ على أنّه ضحية، رغم أنّه قد ألـمَحَ إلى حرية اختياره. شعرتُ كمن يُؤخَذُ بالجُرم المشهود فأردتُ بسرعةٍ تلطيف الجوّ. «أحسب أنّك استبعدتَ شكلاً معيناً من أشكال الحياة. بالمناسبة، في أحدِ أسفارِ جورج العتيقة قرأتُ عن نظريةٍ قلبَتْ علمَ التّطوّر تقول أنَّ أولئك الذينَ انفصلوا عن المجتمع كانوا أقوى البشر. أولئك الذين لم يهتمّوا بالمال والتّكيُّفِ والعائلة».

«أوه، اللعنة. إذن فالمال هو عزاء الضعيف؟».

«بالضّبط».

«حسناً. لعلّي انفصلتُ عن نفسي لا عن المجتمَع. بالإمكان القول أنه انتحارٌ

مُسَوَّف».

«كارثةٌ في الحياة الشخصية؟».

«رَمَتني عن سطح السفية إلى عرض البحر. هو ذاك».

«ولكنّك لم تكن لتتنكّرَ لإنسان، ميتاً كانَ أو حياً. تتركه راقداً. أنا فعلت ذلك».

لم يُعَلِّقْ على ذلك. لقد فهمني هذه المرة. وكان راضياً إلى حدٍّ كبير. أظن. لم أكنْ أكيداً من شيءٍ معه أبداً، ولقد كان بالمناسبة سيخادعني تماماً عمّا قريب. وكان ذلك أفضل.

في السّكون الثقيل بعد آخر عبارةٍ من حواري تركتُ بصري يمشّط الغرفة. نظرت إلى بُرية، إلى هارّي، إلى ذراعَيّ ويَدَيّ. بالملامح الحادّة والأجساد العجفاء التي مَنَحَنا المرضُ إيّاها، بَدَونا كطيورٍ مُرَوِّعةٍ مُسِنَّةٍ في قفص أطلَقَتْ كلّ أفكارها عن العالم خارج القُضبان. وهكذا كنّا فعلاً، جاهزون لننزلق فنقع عن الغصن وأن نُرمى بين القمامة.

أنقذني من هذه النظرة الكالحة إلهامٌ بِعَينِه. لقد تَجلّى لي أخيراً ذلك الشيء المشترك الذي تقاسمناه نحن الثلاثة عدا عن محنتنا التعيسة. لقد كان كَشْفاً مُرّاً، ولكنّه جاء فجأةً حتّى أنّه أشَعَّ رغم كلّ شيءٍ في رماديّة ما حولنا. إنّ ما يوحّدنا، قلتُ لنفسي، هو أنّ أحداً أحببناه كَفَّ عن حُبّنا. تلك هي الحقيقة، لقد كنتُ متأكّداً من أمري. في تلك اللحظة توقّف الزمن بالنسبة لنا جميعاً، وليس فقط بالنسبة لِليندا زوجة بُرية التي كنتُ سأعلنُ بكلّ فرّيسيّةٍ وفاتَها. عندما لا يعود المرء محبوباً فلن يُجديه أن يستمرّ في حُبّه؛ جاء البرد زاحفاً وتوقّف الزمن. في كلّ أمرٍ جَلَلٍ كان الموت حتماً على المرء مُسبَقاً.

نعم، كان الأمر كذلك غالباً، أدركتُ ذلك ولكنني لم أستطع القبول بالأمر الواقع. لم أكن قد بلغتُ مرحلة الاستقالة في ذلك الوقت. كلّما ازدادَ تعرّفي على الموتِ في أدبيّاتِه، كلّما ثَمُنتْ نفسي بقيمةٍ أعلى إزاءه في الواقع. كنت خائفاً. أردتُ الحياةَ لأطول فترةٍ ممكنة، ولم أرغب في «موتٍ مُشَرَّف» بمساعدة «الجرعة الكاملة»، ما دامَ بإمكان جرعاتٍ أصغر أن تُبقي مستوى الألم منخفضاً. في تلك المرّات التي أحببتُ فيها بكلِّ معنى الكلمة حدث أحياناً أن أحسست برغبةٍ في الموت تأتي من داخلي، مثلَ طعمٍ شهيٍّ على لساني ونحيبٍ في أعماق صدري. أما وقد أصبح الموتُ عدوّاً اقتحم المكان، دخيلاً، فقد شعرتُ بالخيانة وذُدتُ عن نفسي هلعاً.

والآن جاءت قوى الحبّ لمساعدتي - ما تبقّى منها. دخلت السّسنتَر أنييلا في حياتي الذاوية، لقد كانت حبي الأخير. كنت قد فكرت في توفيرها حتّى حِينٍ، إلى أنْ نصبح أقرب لبعضنا، ولكنّها كانت غايةً في الأهمية لنا نحن الثلاثة في الصالة ٥ إلى حد أنني لم أعد أستطيع الحفاظ عليها لنفسي. لم تكن أنييلا -لعلي قلت ذلك سابقاً- النقطةَ المضيئة في بؤسنا وحسب، كانت النبع الذي أبقانا، نحن خيالات الظلّ المتعطّشة للمشاعر، على قيد الحياة ومنحَ أجسادنا خائرة القوى بقيةً من الكرامة الرجولية. لم تُقابَل مشاعرُنا بالمثل، بالطبع كلّا، ولم نتوهّم ذلك حتّى، ولكنّها استُقبِلَتْ وقُبِلَتْ بلطف، وكان ذلك عزاءً كبيراً.

لقد كانت أنييلا، دون أن تدرك ذلك بنفسِها (أو رُبّما أدرَكَته)، هي الباعثَ على تلك الذروة والخاتمة العجيبتين اللتينِ أنهَتا الحياةَ في مخيّم القاعدة. سبقَ أن ذكرتُ أنّنا أنا وهاري نظرنا إلى صديقنا بُرية بعينٍ مختلفة بعدما رأينا عائلته المقرفة وتلك المرأة ليندا التي كانت بِحَقٍّ «أمرَّ من الموت» على حدّ وصف الكتاب المُقَدّس وأنّها على الأقل لا بُدَّ كانت كذلك في نظر زوجها الموسوم بالموت. أظهر هارّي تعاطفَهُ من خلال عدة طرقٍ للرعاية، قدرما سمح به وضعُ مربوطٍ بالسّرير تجاه آخر مثله، منها إعلانُه مشروعية اهتمامات بُرية أمام أحد العاملينَ عندما لم يُطِق الأخيرُ، بكل ضآلة الموظّف الصغير أمام «اللوائح»، الثباتَ على موقفه. ولكنّها كانت مرحلةً عابرة، بعد بضعة أيامٍ جاء آخرُ، وكان هارّي قليل الكلام، رقد صامتاً بعينين مغمضتين، ولكنّه ألقى بنظرةٍ بين الحين والآخر إلى بُرية الذي صمت بدوره وبدا كأنه نائم. أمّا

أنا فكأنّهما نسياني، ولكنّني على أية حال كانت لديّ كتبي، مؤخراً كانت أطروحة فرنسية سميكة عن الموت طلبت من أصدقائي هناك أن يرسلوها إليّ بعد أن كفّ جورج، لمرّةٍ وحيدة، عن البحث يأساً. أسرني الكتاب، وجعلني أكثر تأهُّباً ولاحظتُ بوضوح أن شيئاً ما كان يشحن الجوّ في الغرفة، توتُّراً متصاعداً لدى هارّي. شيء ما كان في الطريق وعلى وشك الخروج، ثم وفي إحدى الليالي حدث. رأيته يُنصِتُ مشدوداً إلى وقع خُطى السستر الخافرة الذي مات مبتعداً في الممر. بُعَيدَ ذلك جلسَ، نصفَ جلسة، وقالَ بصوتٍ عالٍ:

«حان وقت الإفلات!».

نظرنا أنا وبُرية إلى بعضنا البعض، بإشفاق. وهززنا رأسَينا المتعَبَينِ.

«سنقيمُ حفلةَ عيد ميلاد لأنييلا. هنا في الغرفة. ونشاهد. نرى أنييلا تأكل. تشرب. وتمسح فمَها».

مشروع إيروتيكيّ. غِرتُ، ولكنْ بإعجابٍ لا يُنكَرُ مع ذلك. لا لأنني فكرتُ في الأكل، حتى مع كوني لم يزل باستطاعتي قضم شيءٍ من الطعام بينما صاحباي طعامهما قطرة المغذّي. ولكنْ من الذي سيُهَيِّئ طعام الحفلة لأنييلا؟ هي نفسُها؟

وجّهتُ هذا السؤال ولكنّ الهتافات العامّة أغرقته. لم نَزَل أحياء! وأخيراً شيءٌ من التّحدّي والحيوية. ولقد فكّر هارّي مليّاً بخطّته. كانت مبنيّةً على قيام أنييلا بين الحين والآخر بدور الممرضة الخافِرة عندما يتعذّر ذلك على أحدٍ من تلك الحلقة.

ولقد بدا أنّ الأمر سينجح. بسعادةٍ ودون تحفُّظٍ أجابت أنييلا بالقبول عندما قدّم هارّي دعوتنا - هامساً رغم أنّ أحداً سواها من العاملينَ لم يكن في الغرفة. بكلّ سرورٍ أخذت على عاتقها أمرَ المُشتَريات، كان جليّاً أنّ الأمرَ أمتَعَها، أطايبُ باردةٌ متنوّعة ناقشَتْ أدقّ تفاصيلِها معنا كلّما خلا الجو في الممر. بَذَخنا، بالتّساوي. بدا الرضا على الجميع، ولكنني رأيتُ كذلكَ خوفاً صغيراً في عينَي بُرية.

لم يَتَبَقَّ سوى انتظار الفُسحة، في الجدول الليلي، التي يمكن لأنييلا أن تأخذها. وقد جاءت الفسحة، وجاءت أنييلا، في ١٨ سبتمبر، الساعة الثامنة عندما بدأت

النوبة. بُرهةً من الانتظار بصبرٍ نافد قبل أن يعم صمت الليل في القسم -ذلك الصمت الذي ما خلا تلك الليلة كان شديد الضغط- لنختلي سعيدينَ أخيراً بمعبودتنا. كانت قد خلعت صدرية التمريض وارتدت فستاناً أزرق، أزرقَ داكناً بنقاطٍ بيضاء. أخَذَت الطّاولةَ الصغيرةَ التي عند النافذة، وَضَعَتْها في وسط الغرفة بين أسرّتنا وشرعت تُهَيِّئُه. كافيار -لقد أصرّ ثلاثتنا على الكافيار-، سلَمون، سُمّانٌ مُتبّل، وأخيراً كعكة شوكولاتة مع قهوةٍ جلَبَتْها من مطبخ القسم. لم تكن المشروبات بذلك المستوى، إذْ لم تُرِد أن تكسر حظر الكحول وقد تفهّمنا ذلك. عرفَتْ بالضبط ما كنّا نرمي إليه فتزوَّدَت بحركاتٍ وهَفهَماتٍ صغيرةٍ شهوانية؛ كان عرضاً جميلاً غمر مسرحياً عجوزاً بالدفء. كنّا شبهَ مُستلقِينَ حولَها في أسرّتنا نتحسّس طعمَ الحياةِ في كلِّ لُقمة، حملَقنا في أنييلا أكثر من الطّعام الذي ما عادَ يعنينا كثيراً بشيءٍ سوى ما في الذاكرة. على أنّ ما أحسّ به هارّي وبُرية لم يكن بوسعي سوى تخمينه، ولم يكن عندي ما أستند عليه في ذلك سوى ملامحهما، الأمر الذي تَبَيَّنَ لي مخادعته بعد قليلٍ. تأتّى لي أن أدرِكَ أنني أسأتُ تقديرَهما تماماً، أنني لم أفهما حقَّ قدرهما.

بعد أن تلذَّذَت مستمتعةً بتناول قطعةِ الكعك وشَطَفَتْ أثرَها بالقهوة نَهَضَت، شكرتنا من صميم قلبِها وقالت أنّ لديها عملاً تؤدّيه الآن في الساعاتِ التالية. لم أجد ضرورةً تضطرّها لذكر الوقتِ لكنني لم أتوقّف أكثر عندَ ذلك. ثمّ أضافَتْ أنّها ترى أنّ بإمكاني أنا، هاسّة، أن أتناولَ ما استطعتُ مما تبقّى من الطعام.

«وبُرية وأنا، ماذا سنفعل؟» بدا على صوتِ هارّي توتّرٌ غريب. «ننظر ونهتف له؟».

«انتظرْ قليلاً». خطرَتْ لها فكرة. «سأُخرِجُ سريريكما بحيث تستلقيانِ حولَ الطاولة. حولَ نار المُخَيِّم بمعنىً آخر. سيكون ذلك ألطف».

«وإذا جاء أحدهم؟» عاودَ القلق بُرية.

«لن يأتي أحد»، قالت حُبُّنا الأخير. ومن ثم ذهبت. وبنظرةٍ دافئةٍ أخيرةٍ من عند الباب، رأيتُ أنّها ألقتها نحو الآخرَينِ أكثر.

ألستُ أنسى شيئاً؟ نعم، كبَتُّ شيئاً. بعد أن تمّ لَها ترتيبُ وضع الأسرّةِ مَسَّدَتْ خَدَّيّ

هارّي وبُريةَ، لا خَدّي أنا. ثمّ نالَ ثلاثتنا حقنةَ الليل.

أكانَ بإمكاني منع وقوع ما حدث؟ بالطّبع كان بإمكاني. هناك استلقينا حول المائدة كما كان الرومان القدماء يفعلون، وبدأتُ ألتقط لنفسي من الطعام بشيءٍ من الحذر، كان قد تبقّى الكثير من كل صنف. تناولت قدر رأس سكّينٍ من الكافيار، وشريحةً من السّلَمون المصفوف...

فجأةً انتصَبَتْ قنينة ڤودكا على الطاولة. لم أقل شيئاً. لم يقل أحدٌ شيئاً، مضيتُ في أكلي، أبطأ فأبطأ، لُقيماتٌ من السلمون، تمعّنتُ في مضغِها وبلا صوت. تجنّبتُ أن أنظرَ إليهما، كان الجوّ غايةً في التّوتّر لحظتها. فوضعت عني السّكّينَ والشوكة.

في اللحظة التالية أسمع أوّلاً ثم أرى هارّي، وبعد ثانيةٍ من التّردّدِ بُريةَ كذلك، يقبضان كُلّاً على سُمنَتِه ويقضمان قضمةً كبيرة. نعرف جميعاً معنى ذلك.

ويستمرّان. يرفعان الإيقاع. شيءٌ ما يُلهِمُهما، يُشِعُّ من وجهيهما. يمدّ هاري يده بالڤودكا لِبُرية حتّى يفتحَ غطاءها، فقوارِضه أقوى. ثمّ يأخذ كلٌّ منهما رشفتين من القنينة مباشرةً.

«خسرتَ الرّهانَ»، أقول بعجزٍ لِبُرية ولكنني لا أجرؤ على النظر إليه. ولا أقول أكثرَ من ذلك.

أكنتُ سأحتَجّ؟ أضربُ مائدةَ الحفلة بقبضتي وآخذ القنينةَ منهما؟ أنادي على أنييلا؟ ولكنّ أنييلا على الأرجح تُدرك هذا الذي يجري.

أمْ أنضمُّ إليهما؟ إنّ ذلك الضغط هو الأشدّ الآن، ضغط الرّفقة. «تضيء العينانِ حين يشرب المرء». أن نَتّحدَ بروح الاندفاع والاحتفال، نخرجَ مكلّلينَ بالنّصر من مخيّم القاعدة. فِعلٌ أخير، شعلةٌ أخيرةٌ من الشجاعة.

كلا. لم أكن مستعدّاً لذلك. ولا أريد الموتَ وأنا آكل. أو أشرب. تلك الحيوية المتبقّية عندي لم تكن مخصّصةً للموت، أردتُ البقاء فترةً أطوَل. أيعني ذلك أنني خذلتُهما؟ نعم، كان ذلك الخذلان الصبيانيّ الكلاسيكي، رغمَ صواب الرأي فسينال المرء دورَ المُمِلّ الكريه، ذلك الذي سبق إلى أن يكون بالغاً صغيراً ولا جرأةَ لديه. خارِجاً، منبوذاً

- مرةً أخرى. كانا قد غابا بعيداً في عالمهما، أكلا وشربا بلا قيود، بَدَيا راضيينِ، ومبتهجينِ تقريباً وغشاوة الاندفاع على أعينهم؛ لا بُدّ أنّهما نالا جرعةً كبيرةً من أنييلا، أكبر من جرعتي - «جرعة كاملة» ببساطة، ولكنّه كان خاطراً أقصيتُهُ فوراً. ما عُدتُ منهم، وكأنني لم أكن موجوداً في الغرفة حتّى. على أنّهما لم يقولا الكثيرَ لبعضهما حتّى، قهقها قليلاً وضحكا على أمرٍ لم يفهمه سواهما.

جلست هناك على سريري أنظر إليهما. كَبُرَتْ المسافة بيننا بسرعةٍ وصرتُ أهدأ. هذه المرة لم أُخذَل. لم أكن مُشَتَّتاً ومرتاحاً، احترمتُ قرارَهما. كان ناضجاً وعلى أساس متينٍ وربّما كان المفترض بي أن أحذو حذوَهُما. ولكنني لم أكن مدعوّاً.

كانا قد أنهيا وجبتهما ورقدا على ظهريهما بلا حركة، يداً بيد، كان هارّي قد مدّ ذراعه. كانا واعيين ولكنّهما لم يتواصلا. أغمض الاثنانِ عيونهما، وبدا أنّهما لا يتألّمان، كانت ملامحهما في راحة. غمغم بُرية شيئاً ما، بدا كأنّه «تَقَبَّلْ»، أو ربما «تَقَبَّلْني». ثم هدأ كلُّ شيءٍ وسَكَن. بدت الأمورُ طيّبةً في الأبدية، أيّاً كانت.

انتظرتُ قليلاً قبل أن أطلبَ أنييلا، راقداً، يدي على الزرّ وأنظرُ إليهما. وكأنّما تبادلا الأدوار. شاخ بُرية وكان شديد الجدّيّة، بينما أصبح هارّي الرّجل الأصغر وبدا خفيفَ الحُمول؛ ربّما رَبِحَ الرّهان. هكذا بَدَيا: متغيّرَينِ إلى أناهما الحقيقيّةِ كما أتمنّى لهما، إلى تلك الأنا التي هربا منها في الحياة. كان جميلاً أن أراهما بتلك الصورة، وقد بلغا الهدف. لقد تمنّيتُ لهما مرتبةً تامّةَ الكمال.

ولكنني شعرتُ بأنني مهجورٌ ولم أرغب أن أكونَ وحيداً مع الموتى. فضغطتُ على الزّرّ. جاءت في الحال تقريباً، وكأنّها كانت تنتظر الإشارة. وقفتْ صامتةً لِوهلة على مسافةٍ تنظرُ إلى الاثنينِ. ثُمَّ قاستْ نَبضَيهما.

«انتهى الأمر».

أرجَعَت الأسرّةَ إلى أماكِنِها، وجَلَبَتْ كيس قمامةٍ اختفت فيه بقايا الطّعام، مسحَتْ أرجاء المكانِ حتّى لم يعد هناك أثر. تركت القنينةَ فقط منتصبةً على طاولةِ بُرية، وكانت فارغةً تقريباً. ثم جلَسَتْ على حافّةِ سريري ونظرت في عينيّ، نظرةً جميلةً

حزينة.

«الآنَ يجبُ أن أطلبَ الخافرين. أنت تدرك ما يجب علينا قولُه».

«بإمكانِكِ الاعتمادُ عليّ يا أنييلا. إذا سألني أحدهم، فسأخبره عن زائرٍ، شخصٍ شكلُهُ مِن سولثالّا ومعه كيسٌ لِبُرية، لطفٌ مُخطِئ. لا أعرف شيئاً عمّا حدث الليلة، لأنني كنت نائماً ذلك النومَ المُبَرَّرَ للمريضِ المحكومِ بالموت. أهذا كافٍ؟ أظن الأفضل لو أخفيتِ القنينة».

«كلّا، لماذا؟ لقد كانت الضربةَ القاضيةَ، وعندما سَيُشرّحونَ -».

«بالطّبع، معكِ حق. ولكن ابقي جالسةً بضع لحظاتٍ قبل أن تطلبيهم. أمسكي بِيَدي. ولنفكّر فيهما ونأمل السلام لهما. لقد كانا رجلينِ طيّبينِ».

ها هما، آخر رفاقي، يرقدانِ هناك. شعرتُ كأنني أدخلُ إلى عالم المرأةِ إلى الأبد. وكأنّه استقبلني بشخص أنييلا. منحتني نظرةً شديدة، كأنّها إثبات. ثمّ أخرجت جوّالَها وضغطت الرقم بينما هي تهرع خارجةً عبر الباب.

حالتا الوفاة هاتان، في الوقت نفسه وفي العنبر نفسه، لَم تُوقِظا أيّة جَلَبَة ملحوظة. ذُهِلتُ، قدرما كان بإمكاني أن أُذهَلَ. لم يرغب أحدٌ في معرفةِ ما إذا كنتُ رأيتُ أو سمعتُ شيئاً غيرَ عادي.

في أحد الأيام وأنا أرقد وحيداً هناكَ في تلك الغرفةِ المُفرَغة - لم يبق فيها سواي وسريري - كنت شاهداً على زيارةٍ جديدةٍ قام بها الرجل ذو السترة الجلدية الصفراء. شاهِد هي الكلمة الصحيحة، إذ ومرةً أخرى لم أكن أنا، المريض العاديّ، من قام بزيارته، لقد زار الغرفةَ، الموقع. لقد كنت أعتقد أنني سأحظى بصحبة اثنين أو ثلاثةٍ من المصابين بأمراض مستعصية ممن انتظروا دورهم طويلاً. ولكنني حين رأيت هذا الرجل ثانيةً هبطت معنوياتي، واستشففت أنّه يضمر أشياء أُخَر. ربما يصبح المرء بعيد النظر بعض الشيء في حالتي. فبقوّةٍ أشدّ من المرة الأولى شعرتُ بإشعاعٍ مصدرُه كائنٌ شرير، جاء ليستحوذ على فريسته. ظهرت كلمة **ليمور**(34) من بين دراساتي: مثل ليمور، أشبهَ بالقرد ونذيراً بالموت، انتصبَ عندَ عتبةِ الباب بفطيرة الجلد التي يرتديها وشعره اللامع ومسحَ بنظرتهِ كمن يفعلُ ذلكَ بعين الرضا في أرجاء ما تكاد تكون غرفةً خاويةً، كلّا بل فضاءً خاوياً.

نعم، فبالنسبة إليه كانت خاويةً، لقد رأيتُ ذلك، إذ كأن عينيه الباردتينِ لم تُلاحظا وجودي عدا عن اعتباره جزءاً من مفهوم «سرير- و-مريض». ليس قبل اللحظة الأخيرة، حين تَفَحَّصني بعجالةٍ من قمة الرأس إلى أخمص القدم. كان ذلك مَبعثَ ضِيق، وكأنّه أخذ قياساتي من أجل التّابوت. ثمّ أومأ إيماءةً صغيرةً برأسه، وكأنّه اتَّخَذَ للتّوّ قراراً ما، وابتعد.

في اليوم التّالي نُقِلتُ إلى غرفةٍ انفراديةٍ في النّهاية البعيدة للممر، تلك المُسَمّاة عموماً بغرفة الموت. وقد دحرجت أنييلا شخصياً سريري إلى هناك؛ لا بدّ أنّها أرادت زيادةَ الإشرافِ قليلاً على حالتي في تلك الأيام، حتّى لا أُفشي سرّاً تحتَ تأثير المورفين. وحالَما كان بإمكاننا الحديث في خلوة أخبرتني أنّهم لن يقوموا بأي تحقيق، بدا وكأنّ شيئاً لم يحدث.

«ولكنّهم سيقومون حتماً بالتشريح؟ ألا ينص القانون على ذلك؟».

«بلى، ولكنّهما قد حصّنا نفسيهما وعارَضا كِتابِيّاً أيّ تشريح. ورقةٌ كهذه سارية المفعول طالما لم تكن هناك ظروفٌ مشبوهة. وليس هناك مَن يرى ذلك. بهذا فإنّ رغبةَ صديقينا نافذة والموضوع مُنتَهٍ».

«ما أحسن ذلك! أعني من أجلك. ولكن أليس ذلكَ غريباً بعض الشيء؟»

«كلا. المسألة مسألةُ مال. بإمكانهم الآنَ إفراغُ وغلقُ صالةٍ وليس لديهم أيّ اهتمامٍ بالتحرّي عن كيفية إمكانِ حدوث الأمر».

«والاعتراضان، متى كُتِبا؟».

«أوه، كان ذلكَ قبلَ مجيئك إلى هنا. كانت لِبُرية أسبابٌ تتعلّق بالضمير. دينية. وهاريّ كتب - حسناً، ما الذي كتبه؟ تقريباً أنّ حياتَه كانت من التمزُّق بحيث أراد على الأقل أن يُدفَنَ بجسدٍ سالِمٍ من التّقطيع. عدا ذلك فقد مَنعَ إحراقَ الجثمان، للسبب ذاته».

«Good old Harry (35). ولكن أنّى لكِ أن تعرفي كل ذلك؟».

الآنَ ابتسمت أنييلا. «لقد ساعدتهما في الاستنساخ».

«هكذا إذَن. أعتقد أنّ عليكِ مساعدتي كذلك. وعمّا قريب».

حيّرَتني هذه المحادثة إلى حدٍّ ما. لقد حظيتُ برؤية جانبٍ جديدٍ من أنييلا. «إن لم أُخطئ فَهمَكِ»، تَلَمَّستُ بحذر، «فإنّ كل شيءٍ قائمٌ على الاقتصاد بالعمالة. ألا يشملك هذا؟».

رَمَقَتني بنظرةٍ جانبيةٍ شديدةِ القِصَر من النافذة حيث كانت تقف. «كلا. ليس بعد». قالت ذلك كأنّما عَرَضاً، وكأنّها أرادت في الحقيقةِ أن تقول شيئاً آخر. ولكنّ شيئاً آخر لم يبدُز عنها.

قبل ذهابِها، إلى أمرٍ مُستعجل كان جليّاً أنّه ينتظر، عدّلَت وضعَ رقادي بعنايةٍ فارِقة. سَكّن ذلك روعي وعجبي على الفور. كانت تُفلِحُ في ذلك دائماً. إلى أبعد مدى.

رقدتُ في غرفتي الجديدة وَعُدتُ بفكري إلى فِعل الاحتجاجِ والانتصار الذي شهِدتُ والذي لم يَطُلْ به الأمر قبلَ الغياب في غياهبِ النسيان والصمتِ مع صاحبَيهِ. Per aspera ad acta (36)، كما قالَ مُعلِّمُ اللغة اللاتينيةِ ذات مرةٍ عن امتحاناتنا. لقد انتصر هارّي وبُرية رغمَ كلِّ شيءٍ على المرض والألم واستعادا حياتَيهِما عبر إخمادهما. وماذا عن الاحتجاجِ الذي رأيته جليّاً في وجهيهِما وحركاتِهما تلك الليلة؟ عَلامَ كان؟ لست أكيداً فيما يخص هذه التفصيلة. ليست الرعاية الصحية، فلم تبدر منهما أيّة شكوى بشأنها. «المجتمع»؟ إنْ صَحَّ ذلك فَسيصحُّ عَن هارّي، ولكنّ هذا النوعَ من المرارة كان هارّي قد خَلَّفَه وراءَه منذ زمن طويل، كان هذا انطباعي، «Situation Stockholm»(37) لم تَعُد تخصُّه. ولم يكن بُرية ذلك الشخص الذي يحتجّ - إن لم يتعلّق الأمر بالغش في الرّهان أو منح المنشطات لخيول السباقات. كلا، إنّ ما كسرَ إرادةَ الحياة فيه هو تلك الزيارة العائلية، هذا ما أعتقده. لقد يئس منذئذ.

أما هارّي، فقد كان أصعبَ مراساً. إن كان لي أن أخمّن انطلاقاً من محادثاتنا، فلم يحتجَّ على المرض والموت، قدرما احتجّ على شيءٍ كانت حياتُه البالغةُ كلُّها احتجاجاً عليه: الرّتابة، انعدام الخيال، اللاحرية في شكل الحياة المحتوم، وكل ما علينا تحمُّلُه حتى يتمكّن عددٌ محدود من الأشخاص من التَّربُّحِ على حسابنا. لم تستطعْ أناركيَّتُهُ البسيطة التصالُحَ مع تلك الشروط، وحتّى مع كون خيبةٍ في الحب هي الشرارة فليس بمستطاعها وحدها تفسير حياةٍ بأكملها خارجَ المجتمع. كان التَّكيُّف ما لم يُطِقْه، «عزاء الضعيف» وكل ما يستتبعه ذلك، ولكي يُثبِتَ نهائياً هذا الأمر فقد قَصَّرَ حياته. ربما ببضعة أسابيع أو أيام فقط. إنّما مع ذلك، لقد رفع العلم. أتمنى أن يكونَ قد رأى أنني لم أخطئ فَهمَه. لن أحظى أبداً بمعرفة ذلك، ولكنّني أتأسّى بأنْ أُفكِّرَ هكذا، إذْ بِغَضِّ النظر عن مقدار الزمن الذي تقضيه مع إنسانٍ آخر فالأرجح ألّا يحدثَ دوماً أنّك ستفهمه. رُبّما هو في الأساس ليس شيئاً يتمنّاه المرء كذلك، حتّى لو منحه ذلك قليلاً من الدفء. ربّما تصبح الحياةُ أكثرَ إثارةً وغنىً إن بقيَتْ ألغازُها. فكرتُ بمونتي وحضورِه الخفيّ الذي، ولا شكّ عندي في ذلك، قد لعب دورَه أيضاً في فِعلِ الصَّدِيقَينِ الأخير. كنت أنا نفسي تحت التأثيرِ نفسِه، وقد ازدادَ

قوّةً عقِبَ ما حدث، ولذا فقد كان نوعاً من الولاء أكثرَ منه «تكاملاً» أو رأياً جعلني أتخلّى عن خدمات المواسينَ المحترفين.

لم يَغنِ ذلك أنني لم أتفكّر في هذه الأشياء، وأكثرَ فأكثر في وحدتي الجديدة.
Telegram:@mbooks90
يقالُ دوماً أنَّ الشخصيةَ تتكوّن في التفاعلِ مع الآخرين، مع محيطِنا الأقرب، عبر الانطباعات في المهد وهكذا دواليك. منذ بَدأتُ أتأمّلُ صرتُ أشكُّ في ذلك. بدلاً من ذلك بِتُّ أعتقد أنَّ أولَ مَن تُقابلهُ ككائنٍ منفصلٍ هو أنت نفسُك، لا أمُّك، وأن الشخصية تتشكّل وتُرَسّخُ في التأرجُحِ الجاري أو الحوار الصّامت بين الأنا والوعي - عديمِ اللغة لدى الطفل حديث الولادة وكذا في نهاية المطاف لدى الإنسانِ الوشيك الموت. هو الذي شكّلَنا ومَلَطَ(38) لَبِنَ وجودِنا ليجعلَ منه مُتواليّةً من متواليات الزّمن، حيث الماضي هو الأشدُّ وضوحاً لنا، والحاضر تغلّف الضبابيّةُ رؤيَتَنا له. أما المستقبل فلا يُرى أبداً - ما مِنّ أنا هناك، ولا وعي.

لكنّني حيث أرقدُ الآن في غرفة صغيرةٍ وحدي تماماً بدأت أشعرُ شعوراً مختلفاً. إن قلتُ أنني فكّرتُ أكونُ مبالغاً، فَلَم أُطِق ذلك في هذه الأيام الأولى. ببساطة: لقد افتقدت صديقيّ، وجهَيهِما وصوتَيهما اللذَينِ ربطاني بالعَيشِ، أيّاً كان ما أصبح عليه هذا الأخير. أصبح اتّصالي بالواقع شديد الضعف، فكأنّني كنتُ أحومُ في وسطه دون أن ألمس الجدران. كان الوَهَنُ جسديّاً كذلك بالطبع، كان للأكل التّافه عواقبُه عليّ أيضاً، بلى لم تكن عواقبَ مميتةً أو حتّى شديدةَ الخطورةِ إلى حدّ تلك اللحظة، ولكنّه مع ذلك أدّى إلى إجباري على أخذ جرعاتٍ أعلى ضد الآلامِ الشّديدة؛ لقد حزَّ الألم بشدّةٍ في بطني ليومين كانا ولا أفظع. لكنّ الإحساس بقلّة الحضور في الزمان والمكان استمرّ كذلك لفترة بعد تلك الأزمة ولم يعد بعدَها أمراً سلبياً وحسب. كُفيتُ أيضاً أن أربَطَ دوماً بالآخرين، كُفيتُ خيولَ بُرية وحيتانَ اليوكر في الحافة العليا من مجال الرؤية، صار بإمكاني إطفاء التلفزيون قدرما رغبت في ذلك. فلديّ أنييلا وبيزيت لأشاهدهما وأتكلم معهما، وهذا كافٍ ووافٍ، وبذلك كنت عند الاضطرار أحتمل زياراتِ دكتور مولّر الخاطفة المتفرّقة في خلوتي.

الخَلوة، الغرفةُ الصغيرة. لها الرتابةُ الأساس نفسها التي للصالة ٥ والصالات الأخَر،

ولكنّهم حاولوا تخفيفَها. لوحةٌ على الحائط قُبالة السّرير، تصوّرُ زقاقاً في مدينةٍ إسبانيةٍ على الأرجح، في أعلاها خطٌّ من سماءٍ شرّيرة الزرقة، وسوى ذلك تدرّجاتٌ مختلفة من الأصفر. وعلى الطّاولة التي عند النافذة مزهرية فيها أزهار، نضِرة دوماً، تحرص الممرضتان على ذلك. هذا كافٍ، لا أريده أكثر أُنساً من ذلك، وأنا سعيدٌ بتخلّصي من الموسيقى الهادئة المشابهة لما في عياداتِ المساعدة على الموت في زيوريخ حيث يُفرِغُ المرء كوبَ السّم على أنغام In the mood (39). إنْ لم يكن ثمة أملٌ هنا، فهناك على الأقل حياةٌ نضرة - الأزهار! - وقبل وبعد كل شيء السلام والصمت.

لذلك فإنني لن أتذمّر كثيراً من المنظر، الذي هو بدون شك غايةٌ في الإحباط بالنسبة لغرف الموت؛ كان بإمكانهم إيجاد موقعٍ أفضل. كما ذكرتُ فإن الغرفة تقع في نهاية الممر، أي عندَ تلك الزاوية التي تُنشئُها بنايتنا، من وجهة نظر الرائي من الخارج، مع بناءٍ جانبيٍّ بارز. المنظر من سريري بالتّالي عبارةٌ عن واجهةٍ بلا نوافذ تحجب، عدا ذلك، الشمس في المساءات حين أكون بحاجةٍ لرؤيتها. وما من لمحةٍ حتى للخضار الذي لم يزل بإمكان المرء رؤيته من مخيم القاعدة.

كل هذا يُشعرك حقّاً كأنّه محطةُ نهايةٍ للحياة. وعلى سبيل التغيير أرفع طرف الرأس من سريري من خلال الضغط على زرّ، وما يمكنني عندئذٍ أن أطلّ ببصري عليه عبارةٌ عن فناءٍ صغير، تلجه كلَّ صباح عربة نقل بيضاء توصِل شيئاً في صناديق خشبية كبيرة، أظنُّه غسيلاً. لا شيءَ غريب في ذلك. الغريبُ فعلاً ما يتبع حَفلَ الصناديقِ إلى الداخل عبر باب مخزنٍ بعدَ ذهاب السّيّارة. عندئذٍ يأتي عدد من الأشخاص، سبعة أو ثمانية، ويقفون في طابور أمام الباب الذي أُعيدَ إيصادُه. يرتدون معاطفَ عملٍ رماديةً وينتظرون بصبر، ويبدو أنّهم لا يتحدثون مع بعضهم البعض. ثم يُفتَحُ البابُ من الداخل، أراهم ينزلون على سُلّم مخزنٍ، آخرهم يوصِدُ البابَ خلفَه. صباحاً تلو آخر شاهدتُ هذا، ولكنني لم أرهم أبداً يصعدونَ ثانيةً. هل هم الأشخاصُ أنفسهم الذين يعودون؟ أنا أضعفُ بصراً من أن أُميّزَ ذلك. بإمكاني طبعاً أن أطلبَ من الممرضتينِ تفسيرَ الظاهرة، ولكنني أمتنع عن ذلك. الأفضل ترك الأحاجي تنعم في سلامها.

على كل حال فأنا لن أسأل دكتور مولّر أبداً عندما يأتي للزيارة. بعد أيّامي العصيبة قام بتثبيتي على المغذّي بقرارٍ لا رجعةَ فيه. لا يعجبني ذلك طبعاً ولكنّني مُلزَمٌ بقبول حكمه. الأسوأ أنّه قرّرَ أيضاً أتـمَتَةَ جرعات المورفين، بحيث أضغطُ عندَ حاجتي إليه على عُلبةٍ صغيرةٍ مُثَبّتَةٍ على ذراعي تمدّني بالحصّة المسموح بها. أي أنني لا أملك أية سلطةٍ لزيادتها إذا ما استمرت الآلام، وهذا في حدّ ذاته انتكاس شاقٌّ لحالتي المزاجية. غير مسموحٍ للممرضتينِ طبعاً أن تساعداني كما في السابق، ولكنّهما لا تحبّانِ مولّر أكثر مما أحبه ولم يطل الأمر حتى أفلحت في إقناعهما بالالتفافِ على هذا الاعتداء على رغبتي في الحياةِ وحياتي الحُلمية. ولكنني قبل أن يتمّ لي ذلك واجهت لحظاتٍ عديدةً شعرث فيها بالهلع يأتيني زاحفاً من حافة السرير التي عند قدميّ، ذلك المكان الذي من عادة مولّر احتلاله عندما يقوم بدوريّات التفتيش. نعم، تفتيش، لأنه لا يفحص، ولا يوجّه أيّة أسئلة عدا ما يوجهه لِلابتوبِهِ الذي يجلبه دوماً معه. يُنَحّي المزهريةَ جانباً وينصبه على الطاولة. وهكذا فعل في ذلك الصباح الذي سأحكي عنه الآن، حين أخذت زيارته منحىً مختلفاً قليلاً.

كالعادة لم يقابل نظرتي ببصرِه، ولم ينظر إليّ بتاتاً، نظر طوال الوقت إلى الكومبيوتر وكأن جسدي كان هناك. ربما كان الألم، ربما تعالي الرَّجُلِ، ولكنني فجأةً ضقتُ ذرعاً. «اسمع يا جنكيز يان مولّر»، قلتُ بسَخَطٍ مُتعَبٍ. «لديّ ما أقوله له. بحقّ المحكومِ بالموت. قريباً سينتهي هذا، ولكنْ حتّى حينه فأمامك مريض من لحمٍ ودم. فردٌ بشريٌّ لا يمكنك شفاؤه ولكنّ بإمكانك رعايته على الأقل. إنه عملك. لماذا لا تتواصل مع الجسد المريض، تتحسّس بطني، تنظر إلى ناقِبَتي(40)، تقوم بمعايناتٍ فعلية ملموسة تخص هذا الإنسانَ وحالته تحديداً؟ الكومبيوتر أداة مساعدة جيدة، شكراً لذلك، ولكنّك الآن تقف إزاء الفرد المريض. لا يمكن لهذا الجهاز أن يأخذ مكاني، ثم ألم تكن لمسة الطبيب عموماً ونظرته وخبرته هي المدرسة الأعلى في الطب؟ لعلك خبيرٌ بأشياء أُخَر، لكنّ ذلك لا يكفي. هل أنا على خطأ؟».

«نعم ولا». ضَجِراً أكثر منه حانِقاً في الحقيقة كان وهو يستمع إليّ ويواجهني ببصره. «حتّى لو أرَدنا فلم يعد بمستطاعنا أن نعمل بهذه الطريقة. الوقت بالكاد

يكفي لكل مريض، علينا أن نعتمد على التحاليل والكومبيوترات التي دونها سيزداد عدد من يموتون في الطوابير عشرة أضعاف».

«أليس الأمر عكس ذلك؟» نبرته الهادئة خفّفت من حدّتي قليلاً. «ألم تكن التقنية هي ما أعطى السياسيين ذريعةً للتقتير على البشر؟ مبالغ هائلة أُهدِرَت عبثاً على نظام كومبيوتر لم يعمل. التقنية بالطبع أكثر إمتاعاً من تخفيف الآلام والرعاية الشخصية. وهكذا تُغلَقُ الصالة ٥ بدلاً من أن تستقبلَ مرضى من الطابور. ما التالي؟ القتل الرحيم؟».

«Wouldn't they love it (41). والرأي العام سَيَلْهَثُ في إثرهم. ولكننا نحن الأطباء نقاوم ذلك، أكثرنا يفعل. يجب أن تعرف ذلك. لكنّ عمليةً حسابيةً بسيطةً بوسع الجميع أن يقوموا بها تبيّن أن حقنةً كبيرةً واحدةً للقتل أرخص لدافعي الضرائب من حُقَنٍ صغيرةٍ عديدةٍ تخفف الألم لأسابيع وأشهر. وعيادةٌ خاصّةٌ غايتها الربح تقوم بحسبةٍ عكسية. هناك يكون جوهر المسألة هو المساعدة على الموت. المسألة مسألة مصالح ماليّة ككلّ شيء آخر في المجتمع. ما مِن مثالٍ أعلى. ولكنّ يا إلهي، كنتَ تريد أن تتجنبَ إخبارَكَ بالنتائج. وها أنا أقفُ هنا وأهذرا».

راضياً بعبارته الخاتمة اندفع خارجاً بخطىً واسعة كما اعتادَ أن يفعل. يجب أن أعترف أنني فوجئتُ بإيجابية. لقد أبدى بُعداً جديداً. ولكنّ شيئاً آخرَ جعلني أتفكّر أكثر: لاحظتُ أثناء المحادثة أنني ما عدت أبالي بكل ذلك. كأنني خَلّفتُه ورائي بالفعل.

صارَ بإمكاني أن أسعَدَ بوجهٍ جديدٍ لم يزعجني. كانَ عاملَ تنظيفٍ أسوَدَ يدخل عليّ كلّ صباح؛ لم أرَهُ سابقاً. كان يرتدي معطفاً أزرق ويبتسم بلطف بينما هو يمسح الأرضية بسائل تنظيفٍ كريه الرّائحة، وحتى هذا كان أمراً جديداً بالنسبة لي. في الصالة ٥ كان التنظيف أكثرَ إيجازاً، ينقضي في دقيقة. أما هذا الشّاب فقد قام بالأمر طبقاً لقواعد التنظيف. بعد ابتسامةٍ أخيرة، كان يأخذ دَلْوَهُ وممسحته ويغادر.

أحببتُ تلكَ الابتسامة، كانت خجولةً وغيرَ مهنيّةٍ. كان بوسعِهِ أيضاً أن يُبدي العبوس فقط، ولكنّني كنتُ أرى الرجلَ بكل ما فيه، شخصاً، لا مُجَرّدَ أجيرٍ مُنَظّف. ليس بالمستطاعِ قولُ ذلك دوماً عن الممرضتينِ، ولكنّهما طبعاً كانتا تحتَ ضغطٍ أكبر. أما مَنْ كانَ شخصيّاً حدَّ ملامسةِ مشاعري فهو القِسّيسة آنّا-بريتّا، التي دخلت عليّ ذاتَ عصرٍ والكتاب المُقدّس المُنَقّحُ لپاسكال وكارل الثاني عشر في يديها والدموعُ على وجنتيها المُدَوّرَتين. كانت قد سمعت للتوّ بنبأ رحيل بُرية وهارّي. حاولتُ مواساتَها، كانت محزونةً فعلاً، وليس أهونَ سبباً في ذلك كونُها لم تستطع المجيءَ بالكتب في الوقت المناسب. هدّأتُ بعض الشيء من رَوعِها بأنّ بُريةَ كانَ بالفعلِ ذا إيمانٍ راسخ وأنّ آخرَ كلماتِه، إن كان ما سمعتُ صحيحاً، كانت صلاةً يرجو بها أن يُتَقَبّل. وقبل ذلك كان قد راهن على الحياةِ الأبدية في آخر رهانٍ من سلسلةِ الرّهاناتِ الطويلة التي حققت وجوده الأرضيّ. حتى أنّها ابتسمت ابتسامةً صغيرةً عندما أكّدتُ لها أن اللغةَ في هذا الكتاب المقدّس العتيق كانت ستأتي بنتائج عكسيةٍ بالنسبة لبُرية، إذ لم تكن لديه المعرفة السابقة المطلوبة. ولا حتّى أنا بالمناسبة. «أما پاسكال»، قلتُ، «فلا أظنُّه كان سيُثَمّنُه. نعم كان لديهما الاهتمامُ ذاتُه بالمقامرة والأرقام، لكنّ إيمانَ بُرية بالرب كان أكثر استقراراً من إيمان پاسكال. لم يكن وجودُ الربّ شيئاً خاضعاً للرهان لديه، على ما أذكر أنه قال، فقد كان يرى ذلك أمراً بديهياً. وبالضدّ من ذلك فقد دخل رهاناً على الحياة الأبدية. كان إيمانه بالرّبّ قوياً، لكنّه لم يكن متأكداً مما إذا كان الرب سيدعوه إليه. كان هذا تقريباً ما قاله».

وَقَعَ الكلام موقِعاً طيّباً لدى آنّا-بريتّا، لقد واساها على ما رأيتُ؛ فكرة المهتدي بعد وفاته لامست قلبها. حين ذهبتُ أرادت أخذ الكتب معها، لكنني طلبتُ منها أن تتركهم على طاولة سريري الجانبية. لم تزل القراءة بمستطاعي، حتّى وإن كان ذلك بعناءٍ

أكبر، فما عادت الصفحات بذلك العدد الكبير كلّ مرة. تساءلت مع نفسي عن رد الفعل فيما لو طلبت تجربةَ نظاراتٍ جديدة. أيمكنُ الدّفاعُ عن استثمارٍ قصير الأمد كهذا؟

كفاني من السوء قنينةُ المُغَذّي وحدَها، ولكنني لم أكن قد بلغت مرحلةَ المُقعَدِ بَعدُ، فلم يزل بإمكاني كما في السابق أن أخرج بنفسي إلى الحمّام وأن أتمشّى بتؤدةٍ في الممر (أيّاً كان ما سأفعله هناك)، دافعاً أمامي الحاملَ وقنينةَ المغذّي المُعلّقة عليه. كان أوّلُ ما وقع عليه بصري في تجوالي لافتتينِ على البابِ المُقابِلِ، على العُليا منهما مكتوبٌ **مخرج طوارئ**، وعلى السُفلى **للعاملين فقط**. مازَحتُ بِيزيت قليلاً حول الأمر، ولكنّها لم تَرَ إطلاقاً ما يُضحكُ في ذلك. عندَ حالاتِ الإخلاء أثناء الطوارئ يتمّ إنقاذ المرضى أولاً، هذا كل ما في الأمر.

قبل خُسران صفاء الذهن بأكمله فإنني أودُّ حقّاً استيفاءَ تكملةِ مغامرتي الشبابية الفرنسية، الختام الذي هدّدتُ به هارّي وها قد نجا منه إلى الأبد. فمن المُحزنِ أن يبقى هذا الخيط مُعَلّقاً. مُعلّقٌ أين؟ ومحزنٌ لِمَنْ؟ نعم، قُلها. على كُلٍّ، بعد عودتي إلى مسرحي الإقليميّ حققتُ نجاحاتٍ معقولةً كممثل، ولكنني بالكاد أذكرُ شيئاً منها، لقد تُرِكَتْ حيث هي على طول الطريق. على أنني أذكرُ بوضوح أنني ذهبتُ إلى يوتيبوري بضع مراتٍ في ذلك الخريف لأتحقق مما إذا كانت الصُحُفُ الباريسية قد تناولت أمرَ جريمةٍ في غابة فونتَينبلو. ولم تفعل طبقاً لما رأيت، فقدّرتُ أنّ القاتلَ عادَ وأخفى الجثة. ونادراً ما ورد في الصُحف شيءٌ عن قضايا الاختفاء التي لم يتمّ حلُّها.

لم أصل إلى ما هو أبعد بل تركت الأمر. ولكنّه لم يتركني. بعد عشر سنوات، وكنتُ أعملُ مُخرجاً عندئذ، ذهبتُ إلى برلين حتّى أُطَبّقَ عندَ فِلسِنشتَاين(42) كمساعدٍ رابع وسكنتُ في نُزُلٍ في الجانب الغربيّ. وفي ليلةٍ كنت قد نلتُ فيها انطباعاتٍ أكثرَ مما ينبغي عن المدينة بحيث لم أستطع النّومَ قرأتُ روايةً نحيفةً وجدتها على رفٍّ في حُجرة الفطور. كانت تحكي عن جريمةٍ تشبه إلى حد التّطابق تقريباً تلك التي شهدتها -حتّى أشجار القيقب كانت فيها-، ولكنّ أحداثها حُرّفَتْ لتدور في غابةٍ خارج ڤيينا عام ١٩٢٠. صُدَفٌ كهذه واردةٌ بالتأكيد. لكن، ماذا لو لم تكن صدفةً؟ إنْ لم تكن

الجريمة قد تمّ حلُّها وأصبحت معروفةً عبر وسائل الإعلام، الأمر الذي كان بالطبع ممكناً دون أن أعرف شيئاً عنه، فلا بدّ أن المؤلّف قد سمع القصة من القاتل نفسه أو من شخصٍ على صلةٍ به. كان مؤلفاً نمساوياً معروفاً إلى حدٍّ ما، ولم يكن قد مضى على موته وقتٌ طويلٌ عندما قرأت كتابه، الذي لم يكن مكتملاً بالمناسبةِ وقد أُصدِرَ بعدَ موته. في الكتاب أيضاً أنّ القاتلَ قنّاصٌ بارع (يتخلّص من شاهدٍ على جريمةٍ سابقة)، وفيه أيضاً أن الغابةَ البعيدةَ رمزٌ للموت - كما كانت بالفعل بالنسبة لي، ذلك الأمر الذي تضخّم مع السنين. «في ڤيينّرڤالد ليس الموت غريباً»، يقول المؤلف. «فهو يجولُ هناك متخذاً هيئاتٍ عدة. تلك المنطقة خطيرة».

أصابت تلكما العبارتان ما كنت أشعر به تماماً، وقد بلغ بي الأمر حدَّ الكتابة إلى ناشر الرّواية والسؤال عمّا إذا كانت حلقة القتل مبنيةً على حدث حقيقي. كانت الإجابة أن الأمر لم يكن كذلك على حدّ علم الناشر وأنّ المؤلّف نفسه أخبره أنه اختلق الحدثَ بِحُرّيّة. رغم ذلك وعن غير رضاً بحثت عمّا إذا كان المؤلف قد تواجد في فرنسا في الوقت نفسه الذي كنتُ فيه هناك: ولم يكن كذلك كما تبيّنَ، وبذا انتهى بحثي.

لكنَّ هَوَسي بسقوطيَ الغريب لَم ينتَهِ. ما الذي أسرني إلى هذا الحد؟ صار الحصول على إجابةٍ أمراً عاجِلاً. ولكن، هل الأمر مُلِحٌّ حتّى الآن؟ السؤال هو ما الذي يستحقّ الوقوفَ عندَه مما تبقّى لتحياه. أما زالَ بالإمكانِ أن أُفاجَأ بشيء؟ هناك الكثير مما هو مثير والنهايةُ تقترب هكذا.

حان الوقت لترك تلك الغابة، هذا القَذرُ أصبح جليّاً. أوسِعْ مكاناً على الخشبة لذكرياتٍ أُخَر. لكن، وللأسف، فقد حدث في الجسد ما وقف في طريق الذكرياتِ، الأفكارِ، الأحلامِ، كلُّ أشكال الحياةِ الداخلية قُطِعَت في بعض الأيام. لحظة الحاضر الجسدية ضَغَطَت من جميع النواحي. كان الأسوأ ظاهراً تلك التّقرُّحات التي خُفِّفَت بالمَراهم والمفرش الهوائي، ولكنّني عانيت سواها من مشاكل الرّقاد أيضاً. فحيناً يرتاح الرأس بنعومةٍ على وسادة الرّيش والمورفين، وحيناً كانت الوسادة نفسها - دون مورفين - من القسوة على الصّدغ حدّ الشعور بأنّها تكادُ تضغطه إلى الداخل.

ولم يكن في اليد الكثير لفعله حيال هذه الانتكاسات، حتّى طلبتُ من أنييلا -ولاحقاً كذلك من بيزيِيت- أن تسمح بالقليل من المخصّصات الإضافية، مع وجود مخاطرةٍ لهما لم يفتهما أن تُشيرا إليها. لقد كنتِ باذخةً مع بُرية وهارّي، قلتُ مرّةً لأنييلا حين تردّدَتْ. نَظَرَتْ إليّ عندئذٍ نظرةً غريبة، ولكنني نِلتُ حُقنَتي وكان بمستطاعي نسيانَ الجسد لوهلة.

ألم تكن هناكَ زياراتٌ أبداً لهذا الممثل العجوز؟ رُبّما يتبادرُ إلى ذهن أحدهم. ألم يصله اتّصالٌ هاتفيٌّ من أحدهم؟ لا بُدّ أنّه كان يعرف الكثيرَ من النّاس. لا بُدّ حتماً من أنّ **إحدى** المعجباتِ القديمات أو أحد الأقاربِ سيتّصل به؟ كلّا، لم يحدث ذلك. ولعلّ أغلب أسباب ذلك يرجع لي أنا نفسي. بالطّبع استخدمت الهاتف أحياناً، فقد انتصب قربي على طاولة السرير، ولكنّ ذلك كان يتمّ حين أتّصل أنا بأحد، أمور عمليّة أردتُ الحزنَ عليها بينما كان ذلك بمستطاعي. ولكنني حظيتُ في الحقيقةِ بزيارةٍ **وحيدةٍ** في وحدتي، زيارةٍ غير متوقعة على الإطلاق من شخصٍ لم أكن أعرفه.

سأقاطع أولاً بأنّ مولّر كان في هذا الوقتِ يجرّب دواءً جديداً بي، كان من تأثيره أنني تَوَرَّمتُ بعض الشيء، وخصوصاً في الوجه، وبذلك صرتُ أبدو أصغر سنّاً وأكثر مرضاً في الوقتِ نفسه. (أغلب الظن أنّه انتهز الفرصة ليجرّب في مريضٍ ميئوسٍ منه على أية حال.) وقد كان هذا التأثير ملائماً لهذه المناسبة. ريجمور، ممرضةٌ كانت تعمل بين الحين والآخر في القسم وأطلقوا عليها اسم ريجمور مورتيس(43) -لعله ليس عدلاً حتّى وإن كانت متصلّبةً قليلاً-، دخلت عليّ في أحد العصاري لتبلغني عن زيارة؛ سيّدٌ كان في المدينةِ مؤقتاً وأرادَ حقّاً لقائي.

«هل قالَ لماذا؟ وما اسمه؟».

«إنه يقف ها هنا في الخارج ويمكن أن يوضح ذلك بنفسه. أتسمح له بالدخول؟».

«بالتأكيد». وبضغطةٍ على الزّرّ، وزمجرةٍ من السرير رُفِعتُ إلى وضعِ شبه الجلوس.

دخل عليّ رجلٌ نحيلٌ في الخمسين من عمره، له ملامح حادّةٌ وعينانِ ثاقبتان، كان مُنحنياً قليلاً كأنما تأدّباً، وبدا لي أنه يشبه إلى حدٍّ ما ممثلاً أو فنّاناً من الطراز

القديم، بحيث يمكن أن تليق به قلنسوة ومعطف رسّام. وبالفعل، قَدّمَ نفسَهُ كرسّام (نسيت الاسم). صورٌ من مرحلة النهاية، قلت لنفسي، من أجل كُتَيّبٍ عن رعاية المسنّين. كان قد ذهب إلى عنواني طلباً للقائي كما إنّه مضطرٌ للسفر في الصباح التالي ولذلك اغتنم الفرصة لكي يأتي دون سابق إنذار. إن لم يكن لديّ اعتراض. قبل أن يتسنّى لي أن أُجيبَ على ذلك أخبرني - وقد جلس بالفعل على كرسيّي ذي المسندينِ - أنّه جاء من تلك المدينة التي وقفتُ على خشبتِها مرّةً، وأنّهُ قد كُلِّفَ بمهمّةٍ من قبل المسرح أن يُقيمَ معرضاً للبورتريت يضمّ القدماء والجدد من العاملين في المسرح؛ ومن المُقَرّرِ أن تُعلَّقَ اللوحات عندَ بهو الجمهور احتفالاً بالذكرى المئوية القادمة. لم أكن في الحقيقة معهم منذ البداية، مازحته بشأن ذلك، وما كنت لأعمّر إلى المائة كذلك. وما جدوى رسمي الآنَ، هذا القليل المتبقّي مني، بينما كان عملي في المسرح في سنوات الشباب؟

كان قد نقل الكِرسي مقترباً مني بالفعل وشرع يرسم في كرّاسةٍ كبيرة.

«لا بأس»، قال، «لن تكون هذه النسخة النهائية. لديّ أيضاً صورٌ من أدوارك القديمة سأعتمدها. وتوليفات الكومبيوتر التي تُستَخدَمُ هذه الأيام».

«جيّد. إذَن فسوف تُجَمِّلني على ما آمل. بدءاً بإعادة الشَّعر لرأسي».

وكأنما نزولاً عند رغبتي طوى الصفحةَ في الحالِ وبدأ من جديد. كانت تلك الحركة آخرَ ما رأيته لمدة، فقد ساد الظلام بعدها. غططتُ دونَ سابق إنذار كما كنت أفعلُ أحياناً، كحجر يغرق. حين صعدتُ ثانيةً إلى السّطح، كان يجلس هناك ويرسم كما في السابق؛ بُهِتُّ، فقد شعرتُ أن ساعاتٍ قد مضت.

«حسناً، أوشكتُ أنتهي. شكراً على صبرك».

«لقد نمت!»

«لا يهم. لقد رجعتُ في الزمن، وتطلّعتُ إلى صور أدوارك. استعدتُ ملامح شبابك المُمَكيَجَة من أجل (44) Being Earnest. تفضل».

رَفَعَ الرّسمة. كانت جاهزةً تماماً. وقد كانت بارعةً للغاية. لا أناقة زائفة، ولا تملّق. ولكنّها صوّرَتْ رجلاً في عنفوان شبابه في هيئةِ رجلٍ يكبُره بعشر سنوات هو إرنست من مسرحية أوسكار وايلد، أكبر دورٍ في حياتي المسرحية. الوجه الشابّ تحت طبقةٍ من مُنتَصَفِ العُمر. العجوز المريض كان موجوداً بهيئةِ تحذيرٍ واضح في بعض الأخاديد عند زوايا الفم. بثلاثةِ خطوطٍ زمنيةٍ جعلَ الرّسّامُ هذا الوجهَ حيّاً. ترك ذلك فيّ تأثيراً مخيفاً. لقد أُعجِبتُ به.

«حسناً، نعم. لقد أعلَيتَ من شأني فعلاً. مرّتين لا مرةً واحدة. أكاد لا أميز أنّه أنا. متى كان هذا أنا، أسأل نفسي».

«ستتعوّد. هكذا تقريباً يتذكّرُكَ جمهورُك. الكبار في السن منهم طبعاً. زبائنك الدائمون. أنت أسطورة».

«حقّاً؟ أنا سعيد بأنّك وجدتَ طريقك إلى هنا. رسمُك يوقظ الذكريات. كان إرنست أفضل أدواري، وها هو الآنَ مُخَلَّد. حتى تعبير الوجه ابن زمنه. إرنست باعتباره دوريان جراي. أو العكس. عبقريةٌ وبراعةٌ كبيرتان، أنحني احتراماً. وأرجو الحصول على نسخة».

«يسعدني هذا الرضا. سأرسل نسخة».

«أعني الآنَ حالاً. لا وقتَ للانتظار. توجد آلة استنساخ هناكَ في الخارج، سأطلبُ ريجمور. لقد منحتَني طعمَ التّذَكُّر، وفتحتَ القناطرَ لدفق الشباب. ولا يفعل هذا سوى الفن الحقيقي. لك الشكر على ذلك».

بينما كنت أتكلم، طوى كرّاسته، مسّ يدي التي لم يجرؤ على الضغط عليها خشيةً على القُصَيبَة(45) وانسحب نحو الباب.

هناك وقفَتْ ريجمور، صارمةً وشهيّة. مستبدّة حقيقية. «من فضلِكِ، ريجمور، ساعدي الفنان في عمل نسخةٍ من أجلي. ويا مايسترو، لا تغيّز شيئاً. إنها كاملة».

ولكنّهما كانا خارجَ الغرفةِ عندئذ. لم يتسنّ لي أن أطلب رقم هاتفه. واسمه.

ذلك الفنّان شديدُ الموهبة كان أوّلَ ضيفٍ لي من العالم الخارجي (أو بالأصحّ من الماضي) وكما اعتقدت فقد كان الأخير. جاءتني ريجمور بنسخة رسمه. كانت غيرَ مُوَقَّعَةٍ وما عاد للاتصال بعد ذلك. أحياناً أُخرِجُ البورتريت وأفكر بأمر دوريان جراي. في الرواية تأخذ اللوحةُ على عاتقها تَقَدُّمَهُ السريعَ في العمر وتدهوُرَهُ بينما يظلُّ هو نفسُه شاباً نضِراً حتّى - نعم، يُحقِّقَ الشرّيرُ مآربَه. لكن هذا الآرتِست قَلَبَ الأمر، بحيث كان الهَرَم والتحلُّلُ من حظّي بينما بُورِكَت الصورةُ بالشباب المُضاعَفِ والدّائم، نُضجاً لدى إرنست، وفتوّةً لدى الممثل تحت قناعه.

تأمّلاتٌ مُريحة لكنّها مُترَفة بعض الشّيء، والأهمُّ كان ما قلتُ في وداعه: أنّ رسمه فتح القناطر إلى ماضِيّ. يبقى أن نرى ما إذا كان هذا إحساناً منه. كان القلق الذي شعرت به قوياً ومغرياً، لكنه لم يكن مائعاً. منذ مَرِضْتُ تجنّبتُ فعلاً أن أنظرَ إلى الوراء. كل شيء كان هذه اللحظة التي أرقد فيها وأنتظر النّهاية. كنت أريد الفرار من الأنا، من وعيِها بالحالة اليائسة. ودون ماضٍ تنكمش الأنا، لأن الأنا هي تحديداً الرحلة عبر الزمن والمنظورِ الخلفيّ الذي يُبَيِّنُ المسافةَ التي خلّفها المرءُ وراءه. في الحُلمِ تُفتَقَدُ التجربةُ الزمنية، لا وجودَ للماضي، لذا تنطفئ الأنا. ولذا هربتُ إلى الحلم. الماضي الشخصيُّ هو نبع النور الذي يَسمح للأنا بالبروز، ولكنّ المرء لا يرى أيَّ نبع نورٍ في الحلم، ليس سوى صورٍ مشحونةٍ بِما لا يُفهَمُ إن كانَ كَذِباً أو سعادةً أو لامبالاة. عندما يكون المرء مستمتعاً، كما يقالُ، فإنّهُ ينسى الزمنَ وبالنتيجةِ ينسى نفسَه. ينطبقُ ذلكَ على هروبي نحو الكُتُب طبعاً، لقد أدركتُ ذلك في وقتٍ قصير: كانت طريقةً لإيقاف الأنا والزمن. ليست هذه فلسفةً، أنا أتكلم عن نفسي فقط. لقد عشتُ تجربةً حقيقيةً لِنفادِ الوقت، وهذه وسيلة دفاعٍ ضد تلك التجربة.

باختصار، كنتُ أتطلّع مُرتَعِداً إلى الماضي، إلى تلكم الذكريات التي هددَتْ الصورةُ العبقريّةُ بإيقاظها. ولكن دون مستقبل، ماذا يفعل المرء؟ إنه يتبدّل كُلّياً، يستكشف أُفُقاً أبعد وأقلَّ تهديداً. كان عليّ أن أتحمّلَ صُوَرَ أدواري الباهتةَ، والنُّسَخَ المُهمَلَةَ منذ زمنٍ بعيدٍ مِن نفسي، حتى أهربَ من هذه الأنا الموجودةِ الآن والتي ستُؤخَذُ مني قريباً.

قد يكون هذا كلاماً غامضاً، ولكنني -كما أسلفت- لستُ فيلسوفاً. أنا أتأمّل حسبما أُرغَم. لقد اتّخذ مركبي مُنعَطفاً كبيراً، مائةً وثمانينَ درجة. وحالَما بدأ يُسرِع في مساره الجديد، ألْجَمَتْني لحظةُ الحاضر ووَضَعَتْ حدّاً، ولأجلٍ غير مُسَمّى، لِعَزْمي. جاء الجرّاح هانسون مندفعاً بصخبه المعهود وأوضح أنّ الوقت قد حان لإخراج السوائل عبر ثَقْبِ البَطنِ، التي انتفخت الآنَ إلى حدٍّ ملموس فعلاً. نعم، ما الذي كان بوسعي الاعتراض عليه؟ وقف مولّر في الخلفية وأومأ موافقاً بينما كان هانسون يقدّم تدخُّلَه الجراحيّ وكأنّه أقرب ما يكون إلى نزهةٍ لطيفة. كان الجرّاح ملكاً.

وقد كان الأمر في الواقع أسهلَ مما اعتقدتُ. بعد حوالي ساعة كنت قد رجعت إلى غرفتي، أنحَفَ من أيّ وقتٍ مضى ولسعادتي محقوناً بجرعةٍ كبيرةٍ من المورفين (أو الكيتوجان كما يفضلون تسميته). مَرَّ مولّر بي وهنّأني بجفافٍ لاتّخاذي قراراً حكيماً، وبدا خائبَ الظن قليلاً. «Don't give up, doctor»(46)، أغراني القولُ، «لا بُدَّ من أن أموتَ أنا أيضاً». إلى هذا الحدّ كنت متحمّساً. وله أن يطمئنّ، فلم تأتِ العملية الصغيرة بتغييرٍ في توقّعاتِ حالتي.

أخفَّ ببضعَةِ كيلوغراماتٍ من السوائل -كنت حريصاً على الحذر من السؤال عن مكوّناتها- عُدتُ إلى استكشافي لما فات من الزمن. أو بكلمةٍ أصحّ ما أُهدِرَ، حسبما ادّعى أحد أصدقائي في باريس عمّا كان پروست يعنيه. أقلّ ما أُهدِرَ كان ذلك الزمنُ الذي أسره الرّسّامُ في بورتريته. لقد حققت في الواقع نجاحاتٍ مُعتَبَرةً في مسرح المدينةِ الصغير ذاك، خصوصاً في أدوار الأوبيريت والكوميديا. لعلّ العاشقَ خفيفَ الظلّ كان الدّورَ الذي أجدتُ أكثر من غيره. لكنّ النّجاحات اقتصرتْ حصراً على أن تكونَ محلّيةً، فَلَمْ تُعرَض عليّ أدوارٌ سينمائيةٌ أو مشاركاتٌ في مسارح أكبر. بعد بضع محاولاتٍ أقلّ توفيقاً في أدوار أكثر جِدّيةً أتمنّى أن يكونَ الأوفياءُ القدامى من جمهوري قد نسوها، كرّستُ نفسي للدراماتورجيا فترةً من الزمن: قرأتُ وحذفتُ من النّصوص وكنتُ أحضرُ القراءات كذلك، كـ«مُمَثّل عن اللغة» كما يُطلَقُ عليه. ثُمّ أردتُ الإخراجَ بنفسي، ولعلّني أستطيع القولَ أن الطريقَ بدأتْ هناك في الانحدار. بعد تطبيقٍ أو أكثرَ، في برلين بين مُدنٍ أُخَر، كان لي أن أُقيمَ ثلاثةَ عُروضٍ في مسارحَ بلديةٍ أكبر في يوتيبوري وستوكهولم. كان الفشل ذريعاً، وأغلب الظن أنّه

كان من حسن حظي بعد ذلك الحصولُ على عمل لحفظ ماء الوجه في قسم الإدارة المالية لأحد تلك المسارح. ولكنني لم أجد نفسي بالفعل أبداً في أن أنفصلَ عن العمل الإبداعيّ، فكنتُ أتدخّلُ وتسببتُ سريعاً في خسارةِ شعبيّتي. في النّهايةِ طُرِدتُ، دَعْكَ مِنْ سَلْفَنَةِ الأمرِ وحدوثه مع اقترابِ التّقاعد بحيث حصلتُ على شروطٍ معقولة.

سيرةٌ ذاتيةٌ تعيسة، أرى ذلك بصفاءِ الآنَ أكثر من أي وقتٍ مضى. وماذا فعلتُ بعدئذ؟ ارتعبتُ من تلاشي الحياةِ في تفاصيل تافهةٍ عملياً، ذلك التلاشي الذي يصيب الكثيرَ من المتقاعدين، أردتُ الاحتفاظَ - أو الشروع أخيراً - بتلك الحركة التقدمية التي تعلمتُ الكثير عنها لدى المسرحيينَ الكبار. فكتبتُ القليلَ من المقالات والمداخلات في مسائل المسرح، حتّى أنني حاولتُ كتابةَ مسرحية، كوميديا، واجهت نقداً لاذعاً وهي لمّا تزل في مرحلة المُقترح. كثيرٌ من الكلام، قليلٌ من الجسد. فتوقّفَتْ الحركةُ التقدّميةُ حتى قبل أن تتحرك فعلاً. وبعدئذ؟ مَرضت. ها أنا على هذه الطريقِ، وستكون على الأقل قصيرة.

لا تُكدّرُني حياتي المهنية ولا تثير اهتمامي كثيراً، ألاحظ ذلك الآن. لا بحيث أنني نسيت كيف كان الرّقص على المسرحِ في أوبريتٍ ما، ذلك الإحساس بالتّرف والسّطوة، الذي لم أكن أملكُ ما يفيهِ، وهذا الرّغَدُ الفارغ لم ينذرْ أن لَطّخَ حياتي الشّخصية بتبعاتٍ مُمِضّة على المدى الطويل. فقد كانت لي بالتأكيد حياةٌ شخصية، وكانت متغيّرةً إلى حدّ ما أيضاً، وفوضويةً فوق كل شيء، خصوصاً أثناء سنواتي كممثل مسرحي. لقد تزوّجتُ وعاشرتُ عدّةَ مرّات، لفتراتٍ قصيرةٍ دوماً وضمن بيئة المسرح التي لا تخدمُ عموماً العلاقاتِ الثّابتة. قصصٌ قصارٌ كانت قاعدتُها أن تنتهي بروح زمالةٍ عالية. لم يكن هناكَ أطفال، ولم يكن ذلك قصداً حتى. يبدو الأمرُ للسامع كحياةٍ عاطفيةٍ مرتبكة، ولكنّها في الواقع لم تكن بذلك السّوء. في آخر زواجٍ لي دخلنا إلى الأعماق، وأنا آسَفُ حتّى هذا اليوم أنّهُ لم يَدُمْ. كان شغفاً حقيقياً. لقد عشتُ سعادةً كبيرةً، أكثر مما أستحق، لكنّها لا كانت دائمةً ولا حتّى تكرّرت كثيراً. لم أحتمل الحياةَ اليومية. رومانسي أنا ولقد حاولتُ أن أُحِبّ بشرف، دون أن أُفلِحَ دائماً.

أظنّني كنت أنوي أن أحكي عن بعض النّساء اللواتي أحببتُ ومع هذا إمّا تَرَكْتُهنّ

أو تَرَكَتني. قصةٌ جدُّ مبكّرةٍ منها ظَلّت على الخصوص تُطاردني وتدفعني إلى التأمل والتكفير عن الذنب من جانبٍ واحدٍ على الأقل. ولكنني عندما أطويها الآن في الذاكرة، التي تعمل على أكمل وجهٍ حين يتعلّق الأمر بالذنب، فإنني ألاحظ أنّها ما عادت تؤلمني. أظُنُني أودُّ بصدقٍ أن أريحَ ضميرَ ذلك الشابّ، ولكنني ما عُدتُ هو، فقد أفْلَتُّ تلك الهوية. لقد خَفَّتْ فتسامت عن جسدي وتلاشت على طول الطريق. أنا بالتأكيد أعرف الرّجل، ولكنّهُ كما أسلفتُ لم يعد أنا. «عُد، كنتَ عاشقاً حقّاً وغافلاً حقّاً» - كلا، لا أطلبُ ذلك، لا أتوسّلُ للذكرى لأنني لا أتوسّل أبداً في أمور المشاعر. في هذا أنا نفسهُ ذاك الذي كنتُهُ دوماً.

هناك طبعاً سببٌ آخر لفتور ماضيّ في الحبّ مؤخراً، وهو أنييلا. معها صارت لِلحاضر اليدُ العليا، إنّها تَغشى كلّ ما هو قديم. حُبُّ عجوزٍ مريضٍ عاجزٍ لممرّضَتِه الشّابّة، إنّها حكايةٌ كلاسيكيةٌ مثيرةٌ للشّفَقة. ولكنّ كلَّ ما يخصّني مثيرٌ للشفقة الآن، ليس أقلّهُ أنني ما زلتُ حيّاً. هي محورُ فورةِ مشاعري أثناء اليقظة؛ بينما في الأحلام لا أجدها وهذا يبقيني يقظاً. أبدأ بتبكيتِ نفسي والتفكير في دوائر كما يفعل المصابون بالأرق، رصدٌ يليه أن يبدأ المرء برَصدِ الرّصدِ وهكذا. لم تستطع كل المهدّئات والمنوّمات التي بُذِّرَتْ عليّ أن تُسَكّنَ قلقي.

يُقالُ أن الانتحار بسبب الأرق ليس أمراً نادراً. نوعاً ما يبدأ الفكر بالاستعداد لهذا المَخرَج، إنما بشكلٍ أقوى عندما أشعر أنني ما زال لدي شيءٌ من القوة أو أنني بدأتُ أسترجعها. لي قريبٌ نجا من جراحةٍ في القلب وانتحر عندما كان في حكم الحُرّ أخيراً من الاكتئاب الذي يتبع الجراحة. إذن فلعلّه كان ضعفي بالتحديد وعجزي - وخوفي بصراحةٍ من الإزعاج- ما هبّ لمساعدتي، إن كانت المساعدة الكلمة الأصح في حالتي وإنّي أراها كذلك. قَدْ يُنظَرُ إلى الأمر على أنّه تناقض غريب، لكنّ الحقيقة أنني كلّما شعرت بالضعف قلّت رغبتي في الموت. (أتمنّى أن يأخذ أنصار القتل الرحيم بعين الاعتبار هذه الظاهرة التي أظنّها شائعة.) أي أن الرغبة في الموت تكون تعبيراً عن حيوية لم أعد أمتلكها. عندما وجد جورج طريقه إلى «غرفة الموت» لأول مرةٍ، دَسّ لي أنطولوجيا عن «الموت الحُرّ»(47) - تفوح من الكلمة رائحة

نيوسپيك(48) وقد تساءلت إن كان يعني ذلك من باب الحثّ. نيتشه موجودٌ في الكتاب ويقول أن فكرة الانتحار تواسيه وتساعده أثناء الليالي الصعبة. ربما شعر صديقاي الميتان بالأمر هكذا. ومثل نيتشه أتوقف عند الفكرة المجرّدة. وضعُها موضع التطبيق شيءٌ آخر كلانا، نيتشه وأنا، أضعف من أن نفعله. لقد امتلك صديقاي القوة.

لكنني قلت أنني لن أتفلسف. بدلاً من أن أصفّي حسابي كُلّياً مع الماضي كما ينبغي لي على الأرجح. لعلّني بتأثيرٍ من أنييلا أُفَضِّلُ أن أطفو صعوداً نحو الحاضر، كسِدادةٍ يحاول أحدهم أن يضغط عليها لإبقائها تحت السّطح. ولكنني الآن على أية حالٍ أضغط عليها إلى أبعد ما يمكن، نحو الطفولة حيث تقبع الجراح كلُّها وهي التي تتطلّبُ عُمراً بأكمله كي تلتئم، ولذا يُفتَرَضُ بي في أقرب وقتٍ أن أبحثَ عنها طالَما لم تزل موجودة. لم تزل موجودة؟ لعجبي فإن ذلك الجزء من اختفائي هو أكثر ما يؤذيني. لماذا؟ ربّما لأن الطفولة مجّانية، هِبَة، وليست من صُنعِ الغاياتِ الذاتيّة وكل ذلك السّعي الذي هو **مسؤولية** المرء. هو ذاك! يمكنني بكلّ سرورٍ خسران ما كنتُ مسؤولاً عنه، فليذهب إلى حيث. لكنّ فُرصةَ أن أحظى بالوجود في العالم، الهبة التي لم أطلبها ولم تكن دَيناً عليّ، كانت ذلك المكشوفَ والبعيدَ المنال فِـيّ، ذلك الكائن الصغيرَ عديمَ الأنا الذي بثُّ الآن أتأمله بحنانٍ مفاجئ.

مع أنني عندما أتأمّل هذه الطفولةَ بملموسية، أراها كانت مُمِلّةً للغاية. وفي الوقت نفسه «سعيدةً» للغاية. ربّما هو الأمر نفسه، إن كان المُمِلُّ يعني الخالي من المشاكل. لا يمنع هذا من أنّ النظرةَ تجاه الأطفال والطّفولة كانت أقسى مما هي عليه الآن. كانت سنوات الاستعداد، ولم يكن الضعف من ضمن قاموس الزمن الذي نشأتُ فيه. كان خُلُقاً أنثوياً أن تَتَأوَّهَ وتتألّمَ، والإسبرطيّ مع الهَجرَس كان قُدوةً للصبيان، تماماً كأبطالِ المقاومة النرويجية «فوق الماء» والفنلنديينَ في الثلج(49). وإيّاك والظن أن الأمهات لَجَمْنَ أنفسَهُنّ. كُنّ يحفّزن أولادهن. لذا فلم يكن بوسعي سوى أن أبتسم لرؤية الموديلات التالية من الشدّة.

كنت خجولاً على فترات، وإلا فقد كنت مبتهجاً ومنفتحاً - مثل أغلب الأطفال على ما أعتقد، أيّاً كان ما يقوله مُنَظِّرو مسائل الأطفال. هناك ادّعاءٌ يتكرر غالباً عن أنّ

المرء يصبح ممثلاً حتى يكافح خجله. لا أعتقد أن ذلك ينطبق عليّ. فقد أصبحت ممثلاً عن حبٍّ للدرامات الكُبرى. كان مسرح الكلمة هو المثال بالنسبة لي، فراهنت على الإلقاء والصياغة وثقافة المسرح الفرنسي. أردت أن أصير **كوميدياناً**، ذلك الذي يدخل في الدور، وليس **مُمَثِّلاً** يعيش نفسَه أنّى حلّ. لم يكن مسرح الجسد والمسرح باعتباره سيركاً من شأني. بالمناسبة فهذا أحد، وربما أهمّ، الأسباب لدفعي إلى خارج حياة المسرح.

تماماً عند بلوغي الخُلاصةَ القاتمةَ يُطرَقُ الباب. كانت بِيزِيت، إنها الوحيدة التي تطرق الباب. تحمل معها جهاز تشغيل سي- دي صغيراً مُدَوّراً. تربطه بالكهرباء وتضعه على طاولتي.

«ما رأيك بقليلٍ من الموسيقى؟» هذه أفضل خصالها، طبيعتُها الشَّغُوف. P2 (50) غطّت حاجتي إلى الموسيقى بما يفي ويزيد، ولكنني لم أستطع أن أقول لا. ليس بوسعي أنْ أردّ طلباً لامرأةٍ صادقة الشغف.

«نعم، ما عندك؟ المهم أن لا تكون موسيقى باروك وهيپهوب. وبراهمز الذي يتأمّل يمنةً ويسرة. المونوتون لا يثيرني».

«يمكنك أن تحجز ما تريد. هناك متجر موسيقى يتبرّع لنا».

«ما أجمل ذلك إذَن. نعم، وليته يكون أوپريتاً، هذا مستواي. أُقنباخ. أو انتظري لحظة: زيهرَرا! هل بإمكانِكِ أن تأتيني بزيهرَر؟ «So geht zu Ende.. zu Ende mein Lied»(51). تغنّي البطلة - أفضل مني. أعلم أنها مائعة. لكنها رائعة».

«لم أسمع بها من قبلُ أبداً. ولكنني سأسأل. ما اسم المقطوعة؟»

«Wiener Mädeln. لقد اشتركتُ فيها مرّةً».

لم يترك ذلك أيّ انطباع. «الأوبريت للعَجَزة. للمتقاعدين».

«وأنا متقاعد. للعجزة أو للأطفال، لا يهمني. لكنّه لطفٌ منك أن تساعديني».

وغادرتْ تجري. مطاردةً أوبريتاً لم يُعرَض في السويد منذ عام ألف وتسعمائة

وسبعةٍ وستين. بمشاركتي في دورٍ مائع كعاشق. لم يُثِر ذلك اهتمامَها. يا ترى كيف سيكون رد فعل أنييلا لو كانت مكانها؟ الخيلاء لا تزول.

ما مِنْ شهرٍ أسرع من سبتمبر. هكذا كانت حاله دوماً معي. كان موعدَ الانطلاق الفعليّ للموسم المسرحيّ، وكان المرء يحصي الأيام إنّما دونَ أن يميّز الكثير منها. لكنّ هذا السبتمبر، آخِرَ ما لديّ، صارَ الأسرعَ لأن الأيّامَ تقلّصَتْ داخلي، يَعَضُّ الصباح منها على ذيلِ أخيه، وأظنّ أنني فرّشتُ أسناني لأكتشفَ أن ذلك كان في الليلة الفائتة وهكذا. جدول الحياة الرّتيب استلب من الواقع ثِقَلَهُ وكُتَلَتَه، وكنت أغجَبُ قليلاً في الحقيقةِ كلّ مرّةٍ أفقتُ فيها من نوم. بلغت الآنَ المرحلة الحوضية؛ كانت انتكاسةً كبيرةً على كثيرٍ من الأصعدة، من بينها أنني فقدتُ تلك الحركة التي أجبرتني عليها زيارات التواليت المتكررة التي نادراً ما أستطيع إيجاد القوّة اللازمة لها الآن. ولكنّ ذلك فوق كلّ شيء أحرجني أمام أنييلا، فقد أدّى الأمر إلى بُعدٍ بيننا أظنّه كان مُزعجاً لها كذلك. أعتقد ذلك لأنها تركت مهمة الرعاية المحترفة

Telegram:@mbooks90

هذه لغيرها، خصوصاً بِيزيت دون نسيان ريجمور التي كانت محترفةً حتّى حافّاتِ حلمتيها اللتين كانتا تشيران نحوي من تحت الصدرية البيضاء الضيقة متسائلتين باحتقار: لماذا لا تَزالُ على قيد الحياة؟

ساءت ذاكرتي القريبة الآنَ أيضاً إلى حدّ أنني لم أعد أتذكّر ما إذا كنت قد نمت أو لا، ولا حتّى في المرّات التي كنت بِتَمام اليقظة فيها وقد أيقظتني حاجةٌ مُلِحّة أو روائح جسدي التي - في تطوُّرٍ صغير مقارنةً بالصالة ٥ - لم تَعُد تختلطُ بروائح غيري. نعم، أعرف، ولكنني لا أستطيع أن أُخرِسَ تماماً هذه العناصر المُقرِفة من وجودي، التي كانت في أغلب الأحيان مُغلّفَةً بِسُدُلِ النّومِ الرحيمة.

كان تطوُّراً طيّباً أنني لم أعُد بحاجةٍ إلى النّوم لكي أحلم. كل شيءٍ تقريباً غدا حُلُماً، كذلك زيارات أنييلا التي صارت أندر لتتدفّق حين تأتي في موقفٍ نصفه هلوسة أو في سلسلة صور، على أنّ وجهها دائماً لا يظهر، لكنني كنت أعرف أنّها كانت هناك. و«أنا»، بالمناسبة؟ «أنا» خارج اللعبة على مدار اليوم، تلاشياً تحقّقَ بالفعل. إذَن فقد كان التّبَتّيّون مُحِقّينَ على أيّة حال، آخِرَ الأمر، قالَ صوتٌ من الحلم.

لقد كانت الأحلام في الصالة ٥ مختلفةً تماماً، خصوصاً في البداية عَقِبَ العملية، والمورفين لم يزل بعدُ هبةَ الرّبّ الجديدة. الدهشة، والدراميّة، والألوان اختفت

تقريباً، حياة الحلم الجديدة كانت تأمّليةً أكثر، وربّما لامَسَت ما هو أعمق أيضاً. فرقٌ آخرُ كان أنّها أَصَرَّت على استدعاء الناس من الماضي، فكانت النتيجةُ لياليَ مُخَصّصاتٍ لِثيماتٍ بعينها حقّاً. ظهرت أمّي أحياناً لتؤنّبني قليلاً، بينما الأصدقاء القدماء وجّهوا أسئلةً حزينة. كان كلامهم جَزْلاً، ما مِنْ كلمةٍ لَمْ تَعلَق، إنّما دون محاورات، لم أكن موجوداً مثلهم، وكان إلقاؤهم كمن يقرأ من كرّاسةِ أدوارٍ كما أنّهم لم يكونوا مرئيّينَ إلّا لِلَمَحات. الأغربُ، وما جعلني أرتعد أكثر من الكلمات نفسها، كان أنني شعرت بأنّهم، طوال الوقت، رأوا وَسَبَروا هذا الذي لم يعد موجوداً لكنّه كان أنا. قاموا بَعَمَلِ مُلَخَّصٍ ما بعد الوفاةِ لي، بصمت. لم أستطع أن أُخفي شيئاً، ولم أُرِد ذلك حتّى - وهذا بِدَورِهِ شيءٌ جديد. لَعِبَتْ الجرعاتُ العالية، أو نوعٌ آخرُ من التسميم المُعَجِّل، لَعِباً شديداً بجمجمتي المسكينة.

في قعر بؤسي العميق، في يومٍ باردٍ من أواخِرِ سبتمبر، تلقّيتُ لا بدونِ جهد مُكالمةً من العالمِ الخارجيّ. كان ابنَ أحدِ أقدم أصدقائي يبلغني أنّ أباه قد ماتَ سريعاً. كان قويّاً ومتمتّعاً بالصحةِ دوماً، أكثرَ صحةً مني، ولكنّه عانى مؤخّراً من التهابٍ رئويٍّ كادَ يتغلّبُ عليه ويشفى منه حتّى أُصيبَ في ليلةٍ بنوبةٍ قلبيةٍ وضعت حدّاً لكل ذلك. حزنت عليه، لم نلتقِ منذ زمنٍ ولكنّها كانت صداقةً جدّ طويلة، ولم يكن بوسعي سوى الذهول بسبب المفارقة الهستيرية في كونِهِ، وهو الأقوى، قد خُطِفَ، بينما أنا أرقد هنا أسبوعاً بعد آخر منتظراً النهاية تحت دراساتٍ وتدريباتٍ استعدادية أخَذَتْ عبر حُكم الموت هذا مسحةً من المَرَح. شعرت أنني أُخِذتُ على حين غرّة. ها أنا هنا أُمتَصُّ بِثَباتٍ لأدنو أكثرَ فأكثرَ مِنَ الشلّال العظيم، يمتصّني تيّارٌ ولا أعتى لكنني لم أزل حيّاً. وفي الوقتِ نفسِهِ يموتُ صديقٌ في سنّي، كان للتوّ حيوياً ولا يفكر بالموت، ميتةً مفاجئةً إثرَ التهابٍ رئويٍّ تافه.

حدث الآنَ شيءٌ قد يبدو فظيعاً لكنّه ربما لا يعدو أن يكون أمراً طبيعياً: فكأنني استوليتُ على شيءٍ من طاقة الحياة التي كان يمتلِكُها، والتي كان بوسعها أحياناً إحباطي عندما كنا نلتقي. الحقيقةُ على أية حالٍ أنني تعافيت بطريقةٍ ملفتةٍ للنظر إلى حدٍّ ما. كنت صافي الذهن لفتراتٍ طويلة، وتمكّنتُ رغم الكبو المتكرر من الوصول إلى النافذة ورؤيةِ حاشيةٍ من ألوان الخريف إلى يسار حقل الرؤية. حتّى أنني تمكّنتُ من القراءة ثانيةً، في حصصٍ صغيرة. ولكنني صرتُ أريدُ أشياء تشعرني بالحياة، أو بكلمةٍ أخرى أن أُديرَ ظهري لاتّجاه السير. كان على جورج أن يُخرِجَ توم جونز، وَ وُودهاوس، وإيفيلين ووه(52) - انجذبتُ نحوَ كل ما هو مفعمٌ بالحيوية وما يُهزّني. عندما تساءل بحذرٍ عمّا دهاني، أسميتُ ذلك، مع ابتسامةٍ لطيفةٍ، النسيانَ تحت الضغط، التّفاؤلَ تحت المشنقة. وقد أعجبه ذلك. ذكرتُ فيلمَ كاوريسماكي عن الرّجل الذي أُصيبَ بضربةٍ في رأسه وفَقَدَ الذاكرة. وقد شاهده هو أيضاً. كان الذي أفكر فيه ما ورد في الحوار بشأن سيسو(53): «سيسو هي حين يرفض المرء الموتَ ولكنّه مستعدٌّ له». قلتُ أن هذا بالضبط ما أشعر به الآن. كان سعيداً من أجلي على ما بدا، وأظنّهُ كان يجهل ما تعنيه سيسو في هذا السّياق. لقد كان شاباً مُتّزناً حقّاً، ولكنّه مثابرٌ صامت. كانت مزّةً وحيدةً تلك التي كِدنا فيها أن

نختلف؛ رأيتُ أنّهُ تجاوزَ حدّهُ في التعاطف ونوّهتُ إلى أن مُقترَحاتِهِ عن الموت كانت تعينني حقاً ولكنني في نهاية المطاف مَنْ سيكون عليه القيام بأمر الموت، وأنّ عليه أن يكون سعيداً لذلك. جُرِحَ، ولكنني أعتقد أنني أعدت ضبط الوِفاق عبر التأكيد على أنّه كان فعلاً مُساعدي الحقيقيّ في الشدائد وصديقاً بالوسع الثقة به.

دخل الدكتور مولّر ذات صباح وتَعَجَّبَ بشدّةٍ لِتَحَسُّني. ولكنّ ذلك على ما يبدو لم يسعده، فبدا عَجَبُه الإكلينيكيّ أشبه بإهانة. «من النّاحية الطّبّيّة فقد كان يُفتَرَضُ أن تغورَ منذ زمن بعيد». لم يقُلْ ذلك، ولكنني قرأته في وجهه. لم أتكيّف مع ما يسري على غيري، وقد أزعجه ذلك.

لفرط الغباء لم أحتمِل السكوتَ، فطاقاتي الجديدة جعلتني راغباً في القتال. «صبراً، يا دكتور. Don't give up. إنّني مُلتَزِمٌ بمكاني في الطّابور. عمّا قريب سيكون بإمكانِ السترة الجلدية الصفراء أن تُغلق هذه الغرفةَ أيضاً».

أغاظه ذلك طَبعاً، ولكنّه رضخ أيضاً وذهبَ دونَ أن يَرُدّ. كطبيبٍ فَقَد تَرَفُّعَ ربما عن الردّ على مثل هذا. ربما كان جنكيز من صنف الباحثينَ الذين يجدر بهم الجلوس في مختبرٍ ما لا أن يتعاملَ مع أصحاب الأمراض المستعصية. كان حُمقاً أشدّ مني أن أصطدم به. خلافاً لجورج فقد كانت لديه سلطةٌ على حياتي الذاوية، حتى إذا كان لم يستخدمها إلّا نادراً. إنما، اللعنة. قليلاً من الرّوح. سيسو!

كأنّما عقاباً على غطرستي استيقظت ليلاً على آلامٍ شديدة، جلّى حدّتَها التّحَسُّنُ العام، فطلبتُ الممرضةَ الخافرة. كررت الطلب عدّةَ مرّات، وأخيراً جاءت امرأةٌ لا أعرفها وهي تتكلّم في جوّالِها لغةً سلافيّة. كان وجهها لامعاً من أثر مرهم البشرة، وحين دنت مني شممتُ رائحةً نفّاذةً لعطرٍ مِن عطور ما قبل الحرب. نفد المورفين منّي ولم تَجرؤ على أن تعطيني حقنةً، وتظاهرَتْ بعدم الفهم عندما طلبتُ منها إيقاظ الطبيب الخافر؛ ربّما لم تفهم فعلاً. كانت ليلةً شنيعةً، وعندما أُنقِذتُ أخيراً في الصباح كنتُ مَرميّاً ثانيةً في حالة وَهَنِ القوى السابقة. كانت أنييلا حزينةً وطلبت مني مسامحتها على غفلتها عن إبلاغ الممرضة الجديدة، التي كانت غارقةً في اتصالٍ هاتفيّ بالرّوسية على جوّالها. بدا عليها الانفراج حين أخبرتها أنني بالتأكيد قد

سامحتها؛ لقد صرت أعرف في هذه المرحلة أنّ التواصلَ يمكن أن يكون سيّئاً بين العاملين نهاراً والعاملينَ ليلاً، إذْ أنّهم ينتمون إذا جاز التعبير إلى رُتَبٍ مختلفة.

نِمتُ؟ كلا، لم يكن نوماً. ولكنّه كان حلماً. خرجتُ من بيتي، وتبعني قطّي الذي امتلكتُ مرّةً إلى حيث حدّ منطقته. هناك نظر إليّ مليّاً وقفل راجعاً إلى البيت. في الصورة التالية كان ينتظرني عند حدّ منطقته وسار قبلي نحو البيت، مثل دليل. كان إحساسي أنّه سيتركني ليعودَ بعدئذٍ إلى مهامٍّ أُخَر. كان المفروض ضمناً أنّه سيؤشّر موضعي في مكانٍ ما. مثل stand-in(54). ولكن، بعد انتقالةٍ مُعكّرة كنت أثناءها أُوشِك أن أستيقظ، انعكس المسار من جديد: انتظرني القط عند حد منطقته عندما جئت قادماً من البيت وتبعني خارجاً إلى المجهول، حيث اختفينا. كان الآن قد كبر حتّى بلغ ضعفَ حجمه السابق. ولكنه القطّ نفسه.

كان نوعاً جديداً من الأحلام، وكأنّ شخصاً آخر يحلم بدلاً مني. كان صامتاً تماماً وفيه مسحةٌ من الحكاية الأخلاقية، مجازياً بعض الشيء، ولكنني لم أُدرِك العِبرَةَ منه ولم تكن عندي رغبة لأُتعِبَ عقلي. لكنّ القطّ نفسه كانَ ملموساً للغايةِ وذا سطوةٍ كبيرة. لعلّه نذيرٌ، فَكّرتُ، ينذرني من تَجَلٍّ أشدّ قوة. آتٍ موعِدُه.

بات يعطيني أفكاراً أُخَرَ إلى أجلٍ غير مُسَمّى. بدأتُ أتخيّلُ أنني أغادر هذا المكان. ليس أمراً واقعيّاً بالمرّة، ولكنني مع ذلك غزلتُ السيناريو كاملاً. فصل الأنابيب عند حلول الليل، الخروج إلى الممر، ثم الخروج عبر مخرج الطوارئ. وبعد ذلك - نعم، ربّما لم أكن لأصل إلى ذلك الحد ولكنني كنت سأموت واقفاً وتحت سماء عارية، بين أناسٍ أصحّاء (حتّى إذا كانوا نياماً راقدين). نشّطني أن أفكّر هكذا. كان خطأي الكبير كشخصٍ مريض أنني لم أتعلّم التّحلّي بأخلاقِ النّباتِ، ومن ثَمَّ فمن الصعب أن «أذبُلَ سعيداً» مثل أي نباتٍ آخر. أردتُ للنهاية أن تأتي كحدثٍ مفاجئ، مثلما يأتي الهوى. ضربةٌ في الصدر: الآن يأتي شيءٌ مختلفٌ تماماً، حتى إذا لم يكن سوى العدم الفارغ. هدأةٌ مستقبليةٌ جميلة - أكاد أسمع هازّي وهو يطلق ضحكته الهائلة نحو أخاديد أفكاري.

هذه السكّة الجديدة كانت اكتشافاً، رَفعاً لمعنويّاتي، وهذا هو الأهم. تعجّبت الممرضات. كم تبدو محتالاً، قالت بِيزِيت. ما الذي تطبخه في رقدتك؟ فأجبتها مراوغاً بالطّبع، إنّما بمرحٍ شديدٍ زادَ تقطيبَها مما رفع مزاجي أكثر. سيطر على أفكاري

وهمُ أنني استعدت المُبادرة. وما كانت الخطوة التالية؟ هوية؟ حتماً، يجب أن تكون لي هويةٌ جديدة. فليسقط التَّبتيّون، جِذ لكَ أناً جديدة.

ربّما أصبح ذلك انتكاسةً عكسية، ولكنّ الأمر كان يستحق. رأيتُ وشهدت كلّ شيء - ثمّ ماذا؟ لن أمارس الحب بعد الآن أبداً في ليلةٍ جميلة - كلّا بالتأكيد، ولكنّ هناكَ ما سوى ذلك. لم تكن الحياةُ ما مللتُ، بل نفسي وحسب. لقد اكتفيتُ من صورةٍ ذاتيّةٍ بالية وثُقتُ -متأخراً للغاية- إلى أخرى جديدة. وكانت تنتظرني في فِعليَ القادم، هروبي من سجن المحكومين بالإعدام. بعيداً مع الرّاحة العذبة والزُرقة الكبيرة والشهيّة الخبيئة في الفخذين قُبالةَ الهاوية المظلمة.

لم أُفكّر أفكاراً ملؤها طاقةٌ كهذه منذ أن صرت وحيداً، فخمدتُ طبعاً بسبب الإجهاد. وحلمت، وإلا ما كنت فيما بعد لأعلم أنني قد نمت. حلمٌ حادٌّ ومُلوّنٌ، لا تلك المسحاتُ الخفيفةُ من الرّماديّ كما في حلم القط. إنّما أوّلاً ما مِن بيئةٍ واضحة، ودونَ جوٍّ من التّلميحات، وليست هناكَ ذكرى محددةٌ بَعدُ ولكنَّ الحلم يدور في بُعد الذاكرة. الزمان والمكان لا يمكن تحديدهما، في موضعٍ ما من الماضي. ثمّ يتضح كلّ شيءٍ دفعةً واحدة، ترتفع الستارة. أجلس تحت نورٍ شديد في مقهى إسبانية، فوق القناني عندَ البار مكتوبٌ بالنّيون كافيه كريستال. المكانُ فارغٌ تقريباً، لا أحد سواي ونادلٍ يتحرّك بِخُطىً وئيدة.

إنّه أشبَهُ بصورة خشبة مسرحية، ولكنني لا أشعر بأن هذه الدراما تخصّني. أو كغابة فونتَينبلو: شيءٌ أبعد ما يكون عن تضاريس حياتي وكأنّه لا شأن لي به ولكنّ أهمّيّتَهُ قاتلةٌ بالنسبة لي. وصديقي تِي مهمٌ بالنسبة لي، وها هو الآن هنا في الصورة التالية جالساً على الأريكة الجلدية قُبالتي، بين المرايا الجدارية الكبيرة. الإنارةُ خافتةُ الآن، ولكنني أرى أنّ وجهه قد تغيّر قليلاً ولكنّه رغم ذلك لم يزل نفسَه إلى حدٍّ ما. أعرف في الحلم أنه ميتٌ منذ زمن بعيد، ولكنّه شابٌّ كما كان عندئذ، قبل أربعين عاماً. يصعب عليّ أن أواجه نظرته، أُطرِقُ ببصري إلى الأرضية وأرى أنّها من جلدٍ بلون الأريكة نفسه.

«كان الأجدر بك أن لا تطلب الإسعاف»، يقول بحزمٍ ولكنْ بصفحٍ مع ذلك.

«ما الذي كان بوسعي أن أفعله سوى ذلك؟» صوتي واضحٌ وحزين. لكنّ هناك سعادةً سِرّيّةً: أخيراً حلمٌ لي فيه أن أتكلم. لأنني أعرف أنّه حلم. حتّى أنّ بإمكاني التلاعب به قليلاً كي أرى نفسي في المرآة. «لقد أصابتك الهيستيريا بسبب نوعٍ من سُم الثعالب وكنتُ تتلوّى على الأرض وتصرخ. لم يكن الكلام معك ممكناً. اعتقدتُ أنك في خطر».

«إه، أنا طبيب. لو لم تتصلْ لكنتُ هدأتُ بعد حين. كان بإمكانِك حقّاً أن تُمسِك بيدي. أن تُبدي الصبر. اتصلتَ بكريستينا أيضاً. غدا الأمر مُزعجاً عدا عن كونه غيرَ ضروري - فَلَقَد انتحرتُ بعد ذلك بِعِدّة أشهر. بالحبوب اللعينة نفسها».

«لم أعرف شيئاً عن حبوبك. لم يكن ممكنا أن أتكلم معك كما أسلفت. ولكن، أن يأتوا بطبيبٍ على نقّالة، أفهم أن الأمر كان مهيناً. إنّما لعلّك لم تنتحر بسبب ذلك؟ ما الذي تريد قولَه؟».

لم أحصل على إجابةٍ عن ذلك لأن مكانه كان خالياً. بقيتُ جالساً لوحدي. على الحائط حيث كان يجلس وقع بصري على صورةٍ لم أُلاحظها سابقاً. كان الحُلم قد بدأ يتلاشى بالفعل ويفقد تسلسُلَه. كانت الصورة التي على الحائط نقشاً بارزاً على الطراز الرومانيّ، بورتريتاً لِـ **تي** وعلى رأسه إكليل غار. صوتٌ ما، أظنّه صوت النادل، لَفَظَ اسماً: «كوينتوس ميتيللوس». متبوعاً بضحكةٍ صغيرة. وأُفقتُ فجأةً، شاعراً برجّةٍ مؤلمةٍ تسري عبر جسدي؛ كنتُ مأخوذاً بحلمي ولكنّني لم أكن مضغوطاً كما ينبغي ربما. بل لعلّني أصبحت أقوى، وكأنني حظيتُ بصفاءٍ في أمرٍ ما دون أن أعرف ما هو. (أيُّ كوينتوس ميتيللوس؟ لقد كان **تي**، صديقي القديم، كامبراطور روماني. لقد ذهبنا إلى حفلاتِ تنكّرية عديدةٍ معاً).

ترك اللقاء مع **تي** أثراً طيباً في نفسي، حتّى وإنْ لم يتسنّ لنا أن نتحدث كثيراً. أثرٌ طيبٌ مماثلٌ تركه وجود «أنا» قوية في الحلم. وكم كانت كلّ عبارةٍ في الحوار واضحةً، وتامّة الضبط تبعاً لِصَوتَينا الحقيقيّينِ مما جعلني أتذكّر الحوارَ بأكمله كلمةً بكلمة عندما استيقظت. كان لدى تي، الآن أيضاً، سحرٌ رقيقٌ خاصٌ أعتَقِدُ أنّه أثّرَ في الرجال أكثرَ مما فعل في النساء، خفّةٌ لاجسديّةٌ تقريباً لم تُلائم الكلمات التي نطق

بها ولكنّها أسَرَتْني من جديد. كان أشبه بآزيَل(55).

نعم، تي ميت منذ زمن بعيد وها أنا أرقد هنا وأستمد القوّةَ من حضوره. وهذه الأنا الجبّارة نصف الحُلميّة، أكانت «الهويةَ الجديدة» أم القديمةَ التي عادت؟

كان ذلك مُبهَماً إلى أجلٍ غير مسمّى. على عكس ذلك كان الجليُّ تماماً أن القدراتِ المُستعادة لم تعمل لصالحي وحسب. فقد استعدت القُدرةَ على أن أخاف. تشنُّجاتٌ صغيرةٌ من الذُّعر، ضرباتٌ قصيرةٌ من هلَعٍ باردٍ لاقتراب الموت. لحسن الحظّ تحمينا طبيعةٌ رحيمة من أن نتمسّك بهذا الرُّعبُ المكشوف لما يزيدُ عن بضع ثوانٍ في كلّ مرّة. الحيوانات التي تُمَزِّقها النمورُ إرَباً لديها الوقايةُ ذاتها من الفزع والألم. كما الحيواناتِ الثديية المُسالمة كنتُ في أيدٍ أمينة.

لم تَدُم القُدرةُ المُستعادةُ طويلاً، قدرةُ التكلُّم بصوتٍ مسموعٍ في الحلم، مواجهةُ الهلع حتّى إذا كان ذلك لثانيتينِ فقط.

طغى الجفاف الآنَ على كل ما سواه. مع ذلك فلا عطش، على الرغم من أنني آخذ سوائلَ أقلَّ بكثيرٍ مما أنضح. الجلد الذي يتقشّر، الحَكّةُ التي لا أصِلُ إلى موضِعِها، وأنا المُعلّقُ بالأنابيب مثل ماريونَتٍ مسكينة. (جائتني قُصَيبَةٌ أخرى، في البطن.) حُرقَةٌ ووَجع، كاملُ لوحة الشّقاء التي تجعلني أتوق إلى الرّفاهية النّهائية. ولكنّ في أحد الكتب عن كيفية الموت، المتكدّسةِ كأبراجٍ قربي، مَن قالَ أنّ بِوِسعِ المرء أن يتعذّب إلى حدٍّ مُعَيَّنٍ فقط، فالألم المُبَرِّحُ يتطلّبُ الكثيرَ من الطّاقة وهذه الطّاقةُ تتلاشى بعد حين، عدا ذلك فإنّ مواضع الألم تتنافس، فيغلب الأقوى منها المواضعَ الأُخَر وفي النّهاية يتعبُ هو الآخر بدورِه قليلاً. ولكنّ ذلك مؤقّتٌ، فهو يشتدّ ثانيةً!

نعم بالتأكيد، هذا صحيح، الألم الكبير يتولّى القيادة ويستبدُّ بالبقية. وجع ظهري الدّائم مثلاً، بفروعِه التي تبلغ أسفلَ الحوض - صباحَ الأمس كان قد تبخّر ولم يعد حتّى الآن. والألم الكبير ينحسر بفعل المورفين، المُخسِنِ، الذي غدا شيئاً فشيئاً كلَّ شيءٍ بالنسبة لي. ولكنني باعتباري مدمنَ المورفين هذا فإنني أشعر بأنني أيبَسُ وتنكسر روحي، أُصبِحُ أقلَّ إنسانيةً. حين تأتي شهوة المورفين الشديدة، فإنني لا أرحم حتى ممرضاتي الحبيبات، فيصبحنَ حاجياتٍ، أدَواتٍ، مُلحقاتٍ لحقنة مورفين. ثم كأنّ جميع السوائل الأُخرى محكومٌ عليها بالطّرد، حتّى آخر قطرة، كخرقةٍ معصورةٍ أشعر بنفسي، يابساً إلى حدّ أن الغبار يكاد يَعُجّ مني. كالمُعتادِ فإنّ للحلمِ قبضةً أقوى على وضعي مما لليقظة عديمة الرّوح، وقد أظهر لي الحلم صباحَ اليوم واقع الحال. لقد قلتُ قبل فترة - يومين؟ خمسة أيام؟ - أنني لا أنفع لأكونَ خضاراً. هذا الحُلم علّمني شيئاً مختلفاً. وكان حلماً حقيقياً، لم أتحكّم بأيّ شيء.

بدأ الأمر بحكّةٍ في دبري، حُلميّةٍ لكنّها بالتأكيد حقيقيةٌ أيضاً - وحين أدخلت يدي لأحلّ المسألة، الأمر الذي ما كان بالإمكان لولا أنه حلم، شعرت في يدي بما يشبه سيقان نباتٍ تنمو خارجةً من أمعائي. حين حاولت سحبَ هذه الباقة من سيقان الجزر شعرتُ بالغبار يكسو أصابعي. ولم تَنقَلِع الباقة، كانت جزءاً من جسدي؛

وشعرتُ بألمٍ في الجذور الممتدة عميقاً هناك في الداخل حين حاولت السحب بشدّة، ويائساً ومُهاناً وعلى وشك التقيّؤ اضطررت أخيراً إلى الاستسلام. استيقظتُ في غايةِ السُخط؛ كانت الإهانة ما أيقظني. عما قريبٍ سأغدو خُضاراً، فكّرت في بدايةِ حنقي، أُهَجَّن، تزدردني دورة الطبيعة. ولكنْ هل مِنْ داعٍ للعجلةِ في ذلك؟! راودتني رغبةٌ عنيفة في معاقبة جسدي الخَذولِ بكأسٍ كبيرةٍ من الويسكي، وشعرتُ فعلاً بالطّعم على لساني الأخشن من ورق السَّنفَرة. لأوّل مرةٍ أفهم تماماً صاحبَيْ سكني الميّتينِ، رَدَّهما القاتلَ على الطبيعة التي أهانتهما دون حياء.

ما ذكرته عن الغبار الذي كساني - كلّا، دُخان - أشعرَني بالقلق والقرف على وجه الخصوص، ظننت فعلاً أنني شممتُ رائحةَ دخان. فجأةً كنتُ يقظاً تماماً. أكانت هناك مَرمَدةٌ(56) في الجوار ربّما؟ ما الذي كانوا يفعلونه، أولئك الأشخاص الصامتونَ الخائفون إلى حدٍّ ما الذين كانوا يقفون في طابورٍ في الباحة هناك؟ لم أعد أحتمل رفع نفسي حتّى أراهم كما ينبغي، ولكنني أسمع أكثر، إنه صوتٌ جديد أشبه بصوت سحبِ شيءٍ ثقيل على الأسفلت، كصوتِ براميل قمامة بلاستيكية. أو هو شيءٌ آخر ثقيل ومجوّف. يمنح حدساً مخيفاً.

أغفو قليلاً عند الغسق. تتفحّص أنييلا الغرفة. لا لمهمة معينة لديها، وإنما للاطمئنان عليّ، وإسدال الستائر. تجلس على حافة السرير، تضع يدها على صدري. أشعر برغبةٍ غامضة، ليست بالكبيرة ولكنها تذكّرني بتلك المرّة بعد العملية حين جلسَتْ هكذا ورأيت كتفيها الرائعين ووجهها الجميل كرسم على مزهرية لإلهةٍ سمراء. كانت تجلّياً لا اسم له ومنحتني رغبةً في الحياة لم أكن، وأنا المبقور للتوّ، مستعدّاً لها على الإطلاق. لم تقل شيئاً، غمغمَتْ بشيءٍ ما وحسب، أو دندنَتْ، ظَنَنْتُ أنها غَنّت ولكنّ ذلك كان بالطبع غائماً. «حقنةٌ جديدة»؟ تسنّى لي أن أقول، وعندها أومأ رأس الإلهة مع ابتسامةٍ رأيتُ فيها ما هو أكثر من حنوّ الأم، ابتسامةٍ مُحيِّرَةٍ، فتنةٍ إيروتيكية. ولكنّه لم يكن سوى هَذْيٍ من عينيّ بالطبع، فقد كانت ابتسامةَ أُمّ.

وهي كذلك الآن أيضاً. إن حَقَّ هذا. تنهض وتلقي عليّ نظرةً فاحصة، تشبه قليلاً نظرة الرجل ذي السترة الصفراء - أريد كبح هذا الانطباع لكنّه يسبقني. ثمّ تُسدِلُ

الستائر وتغادر دون كلمةٍ واحدة، بكل بهائها.

ليست كما عهدتها. ولا حتّى أنا. هذا اليَباش ودخانه، الدّخان الذي يبتعد ومعه جسدي. كذلك الرّوحُ تُنفى. لا تلخيص للحياة هنا، فلم يبقَ ما يُلَخّص، وهذا يُبَسّطُ تأمّلاتي. الوقتُ يجري كما في السابق، ولكنّه يجري خاوياً ولا ينقل شيئاً. ليس الأمرُ مُرعباً وَحَسبُ، ففيه حريةٌ أيضاً. لم تبقَ أمتعةٌ تُثقلُ الكاهل. مراجعة الذات؟ أمرٌ غير وارد مع شخصٍ بهذا الجفاف. يابِس وخفيف، يحوم تحت السقف مباشرةً. لم تكن الأنا نائيةً في الحلم وحسب. لكنّها لا بُدّ تعود حين يُعاود الجسد تسجيل حضوره بما في جعبته من آلام. هذه الطمأنينة وهذا الصمت اللذانِ يلفّانني هما حتماً موتٌ في دفعةٍ مقدّمة، ولا ينبغي للأمر أن يكون بهذه البساطة. لقد غدوتُ خبيراً في هذا، فرغبة الحياة تعود في نوبات، هكذا كانت الحال بعد العملية و- أخجل قليلاً من قول ذلك - عندما رأيتُ رفيقيّ يرقدانِ ميّتينِ. طالما حييتُ فسأظلُّ أتأرجح بين هذين القطبينِ: الصّمت العظيم أخيراً بعد كل ذاك الصّخب، وعلى الجانب الثاني رعبٌ وحشيٌّ من الهلاك، من أن لا أرى وأعيشَ بعد الآن أبداً، نقطة ونهاية بطعنة واحدة. في الغالب أريد أن أعيش، قدرما يمكن من طول العمر والبعد عن الألم. لكنّ اللّيّةَ التّاليةَ لكسّارة الأعناق(57) هي أن هذه الرغبة أقوى ما تكون عندما يبلغ الألم أقصى مداه، عندما أدافع وأنا في هلعي عن نفسي. بينما التّأهُّبُ للموت، نعم التّوق إلى الانزلاق إلى أسفل الأعماق، يغمرني تماماً في الطمأنينة الرائعة التي يمنحها المورفين.

أنظر إلى يدي: القُصيبة في ظهر اليد، أوردةٌ زرقاء كبيرة. أهذا أنا؟ كلا، لا أستطيع الشعور بذلك، وهو شعورٌ مريح. مُريحٌ أن يتخفّفَ المرء من الأنا التي رأت وعاشت كلّ شيء، أو على الأقل كلّ شيءٍ ممكن، مَزّقَتها التّكراراتُ، الروتيناتُ اليومية كلُّها، بِعَتَهِا واستعصائها على التغيير، تفريشُ الأسنان، تسخين الماء للشاي، الخروج بكيس القمامة وما إلى ذلك. مريحٌ أن أتخلّص من كل هذا الموت، أقول لنفسي. إنّما كان هناك أيضاً الدفء الذي أعطاه المرءُ ونالَه، «الحب في ليلةٍ جميلة»، ومضة الحقيقة في القبضة اللّيّنة حين ينزلق المرء إلى داخل الكائنِ نفسِه. الشمس على جدارٍ أبيض عند البحر المتوسّط في ديسمبر. ولكنْ أين كانت الأنا في تلك اللحظات الكاملة؟

بعيدةً هناك أيضاً. ألم تكن تلك هي السعادة: أن لا تتعثر في نفسك؟

مرةً أخرى: ليست الحياة ما مَلَلْتُ، بل نفسي فقط، وكنت بكل سرور سأرحّب بهويةٍ جديدة. لكنّ ذلك لم يخطر على البال، فالمرء لا ينالُ فرصةً ثانية. بلى ورَمي. كل هذه المادّيات التي يجمعها المرء في رأسه أثناء حياته، عجيبٌ أن تُبَدَّدَ دونَ أثر. الطبيعةُ ببلادتها لا تعنى سوى بموادّنا الكيميائية - ولا حتّى هذا منذ أن صار أمراً حداثياً ثانيةً أن يغدو المرء دخاناً. ومن جهةٍ أخرى: مَن الذي مِن حقه مصادرة هذا الحشد من الذكريات، والخبرات، والأفكار الموجودة لدى كل واحدٍ منا؟ ومن في هذا الحشد الأكبر من البشر له رغبة في الاطلاع عليها؟ وحتى أثناء حياة المرء فإنّ جزءاً صغيراً من ذكرياته فقط هو ما يلفت انتباه الآخرين، وما لديه الوقت لمراجعته منها أبعدُ ما يكون عن أن يكون كلَّ شيء. وإذا بها في غفلةٍ تختفي. موت الإنسان، أيُّ هَدرٍ على أيّة حال.

يمكنني أن أتخيّل ما سيفكر فيه مولّر بهذا الخصوص. «حياتك الداخليةُ عالمٌ فنطازيٌّ لا يعنينا. نحن من يمتلك الحقيقة بشأنك. وهي بيولوجية، مادّيّة. أنت ملكنا الآن، وهذا موضع الجمجمة». ولكنّ تبادلَ أفكارٍ كهذا لن يحدث، لأسبابٍ عديدة ولكنّ أوّلَها أنّ الدكتور لم يعد يجرؤ على المجيء إلى هنا. ولا حتّى أي طبيبٍ آخر، فليس مما يروق لهم أن يمرّوا على حالاتٍ ميئوسٍ منها، فذلك يذكّرهم بفشلٍ لهم. الممرضاتُ أشجع، ولكنّ الممرضتين اللتين لا أعرفهما تتجنّباننني؛ ربّما تَوَقَّفَتا عن العمل. المُنَظِّفُ الأسود على عهدِه وَدُودٌ ولطيفٌ، ويجعلني أشعر وكأنني ضيفه المُكَرَّم. تدُسُّ ريجمور رأسَها عبر الباب مرّةً، كي ترى ما إذا كنت حيّاً على ما أظن؛ وحين تراني كذلك تومئ إيماءةً قصيرةً وتسحب رأسها، أما قوامها الجميل فقد مضى زمن طويل منذ رأيته آخر مرة. صرت أُمعِنُ النّظر في كل وجهٍ أراه في الآونة الأخيرة، إذ رُبّما لن تتكرر الفرصة.

تأمُّلاتي تسير أكثرَ فأكثرَ في دوائر، أو لعلّ أنصاف الدوائر المرتعشة هي أقصى ما أطيق. لذا فقد كان تحريراً دخولُ أنييلا باندفاعٍ إلى الغرفة. واضحٌ أنّها غاضبةٌ من أحدهم وتريد أن تفضفض؛ نسيتُ أنني أكاد لا أقوى على التفاعل معها وقد أثار ذلك

مشاعري. غضبها متعلّقٌ بالدكتورة ڤودارز، الثاناتولوجية الألمانية التي لم تُشرّفني حتّى الآن بزيارةٍ منها. ربما لم أبلُغ من المَوات بعدُ ما يكفي لزيارةٍ من ثاناتولوجيّ، أو قد أكون لأسباب أخرى غيرَ مثيرٍ للاهتمام. قد تكونُ سَمِعَتْ بأنّني غيرُ مَيّالٍ إلى **القبول**. على أية حال، تشرَعُ أنييلا بالهجوم عليها وهي تدعوها بِسمِ **خيزيلا**.

«على رسلك، أنييلا»، أنهَدُ. «قد تكون شمطاء وثاناتولوجية، ولكنّ اسمها جيزيلا. لماذا تسمّينها خيزيلا؟».

«ذلك لأنها تدعوني بأنخيلا».

«ولكنّ تلك طريقتهم بالألمانية. أنخيلا ميركل».

«نحن الآن في السويد».

«صحيح. سأقول لها خيزيلا إن كان هذا يُسعدك. ولكنني لا أنال أية فرصةٍ لذلك».

«لا تخاطِر بشيءٍ من أجلي. قد تغضب فتعطيكَ حقنةً تقتلك. كما في أوشڤيتز(58)».

«يا أنييلا. تفكيرٌ كهذا بخصوص الأطبّاء الألمان لم يعد صحيحاً. هي حتماً أوكي».

«ربّما. ولكنّني لا أحبُّها. إنّها منفوخةٌ علينا نحن الممرضات».

«كلّ شيءٍ أكثر رسميةً في ألمانيا. ستتعلّم حتماً».

«محالٌ في حياتك. سامحني».

«وداعاً أنخيلا!».

ولكنني لم أكن غاضباً منها إطلاقاً. لقد أخيَتني المُحادَثَةُ الطريفة وأفكارها اللئيمة لم تزدها إلا جمالاً. ضحكتُ قدرما كان بوسعي الآنَ أن أضحك؛ أظنُّ أن هيكلي العظمي صَلّ. كانت عندئذ خارج الغرفة ولكنّها فتحت الباب ثانيةً وضحكَتْ معي. «عليك الحذر الآن»، قالت. «جيزيلا هي من سيضحك أخيراً».

توقّفَتْ ضحكتي. لا لأنني خائف من الدكتورة ڤودارز. وإنمّا لأن سؤالاً كان على

طرف لساني أردت أن أعرف منه ما إذا كانت أنييلا ضد حُقَنِ الموت والموت الرحيم عموماً، أم ضدّ أنموذج أوشفيتز فقط. كان ذلك سيبدو شكّاً، نيابةً عني وعن الآخرين، وأنا سعيدٌ لأنني لم أفعل. شعرتُ كأنني تجنّبتُ خطراً عظيماً.

نزعةُ الترويحِ عن نفسي بقليلٍ من الفكاهة المُختَلَةِ تستمرّ. بِيزِيت، صديقتي الأخرى، بطبيعتها الأكثر حدّةً مقارنةً بأنييلا، فاجأتني يوماً ما بالخطبة التالية، الجلفة والقلبيّة في آن:

«اِنهَض أيها العجوز! كفانا موتاً هنا حتّى حين، فهناك زحامٌ من الجُثث في المصاعد. هنا سنحيا، أليس كذلك؟ سنبذخ، اِنسَ دافعي الضرائب. حقنةٌ كهذه مثلاً، أتدري كم تُكَلِّفُ المُجتمَع؟ كما خمّنتُ. ولا أظنّه شيئاً يهمّك حتّى. هات ذراعك الآن!»

يا لدفئها، هذا ما أحتاجه تماماً. بالنسبة لي فهذه هي الأمومة الحقّة، الأمومة التي عهدتها عندَ أمّي نفسها. التي لا تشبهها بِيريت في ما عدا ذلك. أنييلا هي من تشبه أمّي - كفتاة، تلك الفتاة السمراء التي لم أعرفها أبداً. أنييلا التي أحبها بكل الحرارة التي ما زال بوسعي أن أشعر بها، فَلِمَ المُراوَغة - هل شَرَعَتْ في «تسليمي» إلى بِيزِيت التي تتلقّاني بلطف لما تبقّى من الرّحلة؟ تذهلني الفكرة. ولكنّه ليس ما أريد. صحيحٌ أنّ أنييلا نادراً ما تجلس عندي الآن، ولكنّ سبب ذلك قد يكون شيئاً آخر، ربما يصعب عليها أن تراني أغدو أضعف. إنها تشعر حتماً أنّ ما تبقى لي من وقت هو مهمّةٌ وُضِعَتْ على عاتِقِها، وقد صرنا في غاية القرب من بعضنا البعض ولذلك فهي تتراجع.

كان ينبغي أن أفكر بهذا من قبل. لكنّ القرب دون الكثير من الكلام أمرٌ يمكنني أن أناله من كِلتَيهِما، أمّا الإشفاق عَلَيّ فستكفيانِني إيّاه. وهو أيضاً السبب نفسه الذي جعلني أمتنع عن قبول الزيارات؛ لا أريد رؤية الإشفاق في العيون التي نظَرَتْ إليّ يوماً ما عن حُبٍّ أو صداقة. إنه بمثابة السُّمّ لمن هو مثلي، إنه الموت في دفعة مُقدّمة. نعم، أعرف، الهوانُ يُلامس القلوب. ولكنّ ذلك تحديداً هو ما لا أريد؛ أن ألامس قلباً بِهَواني. إنّه شأني؛ تفوح من عَرَضِهِ طواعيةٌ سلبية. إن كان لي أن ألامسَ قلباً فعلى ذلك أن يكون بواسطة حَيَوِيّتي النشطة إلى أن تأتي نهايتها ونهايتي. وعلى الخصوص فإنني أخاف من سماع كلامٍ «مُتعاطِف» عن الموت وحكمة القبول به بلطف. لذا فأنا سعيدٌ بأن ڤودارز تبقي نفسها بعيداً عني ولا أعتقد أن لديها شيئاً تُعلّمنيهِ لم أقرأ عنه مسبقاً؛ بأيّ رُوحيةٍ سأموت هو أمرٌ سأراه متى ما حانت لحظته.

أبتَدِعُ دوماً شيئاً ما. في السويد نُحِبُّ لَومَ أنفسِنا إلى حدٍّ أننا لا نريد الكلام عن الموت. ولكنّه على الأرجح أقلّ أخطائنا شأناً، ودفاعاً عنّا يمكن للمرء القول أن من السهولة إطلاق الخيال عن الموت ولكنّه أمرٌ صعبٌ أن تأتي بشيءٍ ذي قيمة قبل أن تعيش الموتَ فعلاً، وعندئذٍ تكون مُعاقاً عن أن تفعل ذلك. أما فيما يخص موتَ الآخرينَ فإنّ التعليقَ أمرٌ أكثر وقاحةً. ما لا يمكن الحديث عنه، يجب الصمت بشأنه. لا شيء هناك ينفع البَسْرقِسْر(59).

لو أنّ صديقي ودليلي جورج سمعني أقول ما قلتُ للتوّ، فسيعتبره تأكيداً على القلقِ العميقِ لديّ من الموت.

ينتشر الخَدَرُ العَذْبُ، من قمة الرأس إلى أخمص القدم. تبقى بِيزِيت جالسةً عند حافة سريري. تمنح نفسها وقتاً معي، لا تريد تَزكي كشيءٍ يُنجَزُ على عجلٍ كيفما اتفق.

«هاسَه؟ أنت لن تستسلم، أليس كذلك؟»

«الجسد هو الذي يستسلم. لا أنا. على المدى القصير، لن يربح شيئاً من تعذيبي. العذاب معناه أن المرء حيٌّ ويُعارِك. لكنّني في النّهاية سأُحَطَّمُ طبعاً، وسيكون توقُّفُ الألم أهمَّ من استمرار الحياة».

«The bright side of death».

«The silver lining(60)، على الأقل. إنّما لماذا نتكلّم بالانجليزية؟ أظنّها عدوى جنكيز يان. بِيزِيت يا صديقتي العزيزة، حاولي أن تبقيه بعيداً عنّي عندما يحين الوقت. ربما لن يكون ذلك صعباً. أظنّه يخشى أسِرّةَ الموت».

«غالباً. ولكنّه قد يجد نفسَه مُضطرّاً. حتى لا يفقد ماءَ وجهه أمام قودارز. فهو يخشاها أيضاً».

«إذَن فَعلَينا أن نوقّتَ خروجي حتّى أتجنّبَ هذا الزّوج».

لم يَرُقْ لها ذلك. وجّهَت إليّ نظرةً مُتسائلةً. نَظَرَتْ إلى ساعتها وتركتني في عُجالة.

لقد كنتُ مُباشراً أكثر مما ينبغي، واعتبَرَتْ ذلك حَثّاً. طَلَبَ حَجْز.

ولكنّ ردَّ فِعلِها كان مُطَمئِناً. أهم ما في هذه المحادثة كان، وإلى أجلٍ غير مسمّى، شيئاً آخر، أنّ بِيزِيت أعجبَها أنني لا أستسلم، لا أوافق. الإيديولوجيا السائدة هي الانصياع بهدوء وكرامة حين يضيع الأمل؛ بالنسبة للمحيطين بالمرء فهذا هو أكثر ما يريحهم. لذلك فمِمّا يبعث على الاطمئنان وجود هذه الإنسانة القويّة إلى جانبي، وأنا أثق بأنّها صادقة. لقد تركتُ الأمل يبتعد، هذا صحيح، ستأتي النهاية قريباً - بعد أسبوع، بعد يوم - ولكنني أنوي الرَّفضَ حتّى أبعد رمق. لم يفعل بُرية وهارّي ذلك، وافَقا بطريقتهما، ليس سلباً بل عبر فِعلٍ مُعَيَّن. كانت رؤيةُ ذلك أمراً جميلاً، ويجب أن أعترف لنفسي أنّ تشبُّثي بالحياة ليس متيناً وخالِصاً تماماً؛ تحت هذا الموقِفِ المتحدي هناك إغراء ناعمٌ لكنّه قويٌّ للاستسلام يتحوّل في بعض الأحيانِ إلى شهوةٍ خالصة، لا أستطيع أن أسمّيها شيئاً آخر. ربّما يكون «جَلَدِي» على الأغلب عزماً على «بذل كل ما لديّ».

ألاحظ أنني أتحرك بأفكار منقسمة وبأنصاف أفكار، يبدو أنني بدأت أصير مُشَوَّشاً. حالياً، على سبيل المثال، فأنا أفكر كما يلي: «انتهى كل شيء، أعرف ذلك، ولكنني لا أشعر بذلك. وهذا أفضل من أن أعرف أنّ هناك فرصةً دون أن أشعر بذلك». لذا فأنا أمضي في التحوّل النباتيّ، وأحياناً أحلّق بمرحٍ تقريباً على أجنحة المورفين والبلادة وأفكر بالنهاية التي لا تبدو كنهاية. إنها نشوةٌ سامّة يمكن للروحانيات والموسيقى أن تستحضرها أيضاً، خصوصاً عندما يَبدأ الإنهاكُ الذي - لقد سبق وقلتُ هذا - هو أكبرُ إغواءٍ بالموت مِن الألم. Wie sind wir wandermüde، كما غنّى شوارزكوف في أذني ذات ليلة، (61) ?ist dies etwa der Tod متبوعةً بإمتاعٍ سريع، كنغمةٍ قصيرة دون كلمات، أو نقرةِ وَتَرٍ واحد لا غير.

إنّما وإن يَكُن: في خضمّ الإرهاق لم يزل هناك نوعٌ من الثّورة، وعيٌ متّقدٌ بالوجود كان مفقوداً في الحياة النّمطية؛ ربّما يكون الافتقار إلى حضور الحياة هو معنى النّمطيّة. «حيث يكون الموت لا أكون أنا»(62) - كلمة مواساة محبوبة. كلا، بالفعل، ولا في أيّ مكانٍ آخر حتّى، من ثَمّ فهذه المواساة لا تجدي نفعاً. إنّ ما أريده

هو أن أكون، مُعَذّباً أو لا، ولأطولِ فترةٍ ممكنة.

في الوقت نفسه، الذي أفكّر فيه بهذا، أسأل نفسي عمّا إذا كنتُ أصعّبُ كلّ شيء على نفسي بهذا التفكير. هل أتوقف عنه كما فعلتُ، إلى حدٍّ كبيرٍ، مع دراسات الموت؟ هل تُخَفِّفُ تلك الجهود من الضغط كما كنت آمَلُ، أم أنّ الأفكارَ المُقلِقةَ جميعها ستعود؟ كانت الفكرةُ هي الانغماس عميقاً في الصور والنظريّات المتعلقة بالموت، موت الآخرين والموت عموماً، بحيث يختفي موتي عن بصري أو يكون على الأقل قد أُزيحَ جزئياً حين يحين دوري. قبل أن يفوت الأوان، يفوت حقّاً، يجب أن أكون قد طبّقت نصيحة أمي، إحدى أفضل نصائحها، وهي أنّ المرء إذا شعر بالإحباط فعليه التركيز على ما لا يعنيه؛ عندئذٍ سيزول عنه ذلك. وفي المقابل فقد تذكّرتُ موضعاً في **الجبل السحريّ** لتوماس مان، التي رشّحها لي جورج على مضضٍ وبفخرٍ معاً، يقول: «على المرء من أجلِ الخير والحبّ أن لا يمنح الموتَ سلطةً على أفكاره». إنّما ألم يكن ذلك هو ما فعلتُه بالضبط، هذا إن كان الأمر متعلقاً بالموت في الكتب، لا بالموت هنا والآن. العلاج والرُّقية، داوِ السَّقامَ وإنْ بالسُّخام. لا دوافِعَ للموت، هذا ما اعتقدتُه أنا على الأقل. لا خضوع. الخير والحب؟ نعم، لقد أذهلني الخير دوماً باعتباره انحرافاً لم أُفلِخ أبداً في بلوغه ويجده العالمُ الحديثُ مزعجاً. أما الحب فأعرف عنه أكثر، ولم أمنح الموتَ سلطةً عليه أبداً في أفكاري - حتّى وإن كانا قد اقتربا من بعضهما البعض مرّةً عندما كنت شاباً. كما لا أرى أيّ صراعٍ على السلطة بينهما؛ بدلاً من ذلك فهما يتّحدان من جديد، في هيئةِ أُموميّةٍ تشبه إلهةَ الموت في قورينة ولكنّ لها وجهاً حتّى إذا لم يكن واضحاً. سوف تستقبلني وتطفئني في حضنها.

رفرف هذا العرض الأخير لِلَحظةٍ ومنحني سلاماً متأخراً. الأشياء تختفي الآن، أنا شديد الضعف. الغفوة هي وضعي الطبيعيّ، وضعٌ عديم الوزن في السرعة صفر. هناك لا أعود أشعر أنني سأموت، بل أنني لم أولَد أبداً، وأن هذا حلمٌ بهيجٌ قصير يُعرَضُ الآن، فالأمر يتعلق بالمكان الذي أفضّل أن أولَدَ فيه، وبعض المناظر الطبيعية تُقلّبُ كما لو في كُتَيّبِ سياحي، وما عليّ سوى أن أختار. أتوقّف على الفور تقريباً عندَ مدينةٍ مطلّةٍ على البحر المتوسط، حيٍّ شعبيّ، حشد من البشر، وأشعر بالرضا

يبلغ أعماقي. ثمّ يخبو المشهد الجميل ويختفي. يحتلُّ محلّهُ سأمٌ رماديّ، وأنا نصف مستيقظٍ مسبقاً. لكنّ صورةً جديدةً تطلع: مسطّحُ مياهٍ رماديٌّ يمتدّ **عموديّاً** فيغطّي مدى الرؤية بأكمله، ولكنّه لا يسقط؛ إنّها بحيرة ذات أمواجٍ صغيرة تهدهدها. ثم تتصلّب لتصير كثبان رمل، لا تزال رماديةً. لا بشر، لا حياة. مرتعباً من أن يتهاوى الجدار الذي من رمل فيدفنني أُفيق فجأةً.

لكنّ الصدمةَ ليست أسوأ من غرقي على الفور في أعماق رؤيا جديدة، حزينة وهروبية كأنّما لمواساتي. ما مِن ابتكار، صور الذاكرة نَظَمَتْها يدٌ مَرِحَة. ومن عُمقِ قوامه أربعون عاماً يظهر، تمثال بومارشيه(63) في مكانٍ ما قرب الباستيل. إنّه يخطو راقصاً ويطوّحُ بعكّازه، مؤشّراً للمسرحية بأن تبدأ. ترتفع الستارة خلفه ومنظر الخشبة يمثّل حديقةً بأجماتٍ مُدَوَّرةٍ صغيرة و... ثُمّ لا شيءَ بعد ذلك. لماذا **الآن**، هذا الاستهلال لشيءٍ احتفاليٍّ وممتعٍ ومرحٍ قليلاً؟ هل أفرُّ إلى ما يحيطني كي يتسنّى لي أن أنظر ساخِراً إلى الفظاعة التي تجري في الدّاخل، مثلما لا يسهل نوم المرء كما يسهل عندما تتوجّب عليه اليقظة ويرقد أرِقاً عندما يكون بأمسّ الحاجة إلى النوم؟ إذَنْ فهو بومارشيه الآن، إنّما كتذكيرٍ سريعٍ وحسب، مقامراً ومُهرِّجاً وإنساناً جديراً بالحب، سعيداً وثرثاراً - لم يكن بوسع الرّاقد على فراش الموت أن يصل إلى أبعد من ذلك، ولهذا فقد حظي الرّجل الآن ببضع لحظاتٍ من كامل اهتمامي. (64)Pas de rapport، لم يهمّه الموتُ أبداً، مادةٌ كوميديةٌ رديئة؛ ولا حتّى الحياة رُبّما ما خلا لحظات المواساة المسرحية والإثارة عند طاولات القمار. لعلّها كانت «وداعاً»، قدّمها لي من المسرح الذي كم أحببتُه أنا أيضاً، من الكوميديا و**الكوميديان** الذي كم وددتُ أن أكونه. أما المقامر الذي يلعب بعصاه فاعتبرتُه تحيةً من صديقي الحزين بُرية.

عودةٌ إلى عالم الآلام الذي يشمل الآنَ المثانةَ أيضاً. عالمي الخاص يضيق أكثر فأكثر، أرقد في وحدتي المُخَدّرة وأنظر إلى آخر دوّامات الحياة، كما يبدو لي، وهي تُجرَفُ إلى أسفل البالوعة المظلمة. لا يظهر الأطباء للعَيانِ بتاتاً، حتى الجرّاحُ الفَكِهُ يخذلني، ولكنني، منذ أن تجلّى لي كيف ينظرون إلى محتضرٍ بلا عائلةٍ وقضيّته خاسرة، لا يسعني القول أنني أفتقدهم. لي عزاءٌ في أن ذلك قد يزيد القرب من مُـمَـرِّضَتَيّ اللتينِ لا تزالانِ تهتمّانِ لأمري واللتين بتُّ الآنَ أعتمد عليهما كلّياً.

يخطر لي أنني عندما كنت طفلاً غالباً ما تعجّبتُ لكوني لم أمت، بالسُقوطِ من الشُرفة أو الدّهسِ بشاحنة أو الغرقِ في ريدارفياردَن. هذا التّعَجُّبُ، الذي امتلكَه صبيٌّ كان فيما عدا ذلك مفعماً بالحيوية، توقّف في سن المراهقة. حتّى هذا اليوم، وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، أسأل نفسي عن السبب وراء ذلك. اقترابٌ خاصٌّ من الموت لدى الأطفال، أطفالٍ بعينهم؟ لديّ أنا على الأقل، هذا ما أعرفه. مات أبي عندما كنت صغيراً جداً، تلك كانت تجربتي الأولى، يخيّم الذنب عليها بغموض، رُبّما تأثّراً مني بحزن أمّي ومشاعر الذنب لديها. كان الحزنُ وتأنيب الضمير مزاجَها الأساسيّ، وهذا يفسّر - على ما أعتقد الآن - وجودَ مسافةٍ دائماً في حبي لها. وهكذا أفسّرُ أيضاً سوء تصرّفي عند سرير موتها: لقد غفوت. نمتُ ربّما لِخمسِ دقائق؛ أثناء ذلك الوقت ماتت. هذا الخذلان، أو الحادث المشؤوم، ظلّ بالطبع يطاردني كشبحٍ في عالم أحلامي، وخصوصاً في الآونة الأخيرة. نعم ماما، قلتُ لها قبل بضعة أيّام في حلُمٍ نَسَجَتْهُ الحُمّى، كنتُ نائماً عندما مِتّ، إنّما أليس بإمكانِكِ أن تغفري لي ذلك الآن؟ لقد ندمتُ على ذلك ثلاثينَ سنةً. والآنَ حان وقت سرير موتي، لا تجعلي منه مِخْلَعَةً(65) رجاءً. - لم تَرُدّ على ذلك.

لي معها حلمٌ سابقٌ أكثر رعباً. بدأتُ الحديثَ فيه بالقول: لقد مررتُ بالكثير من الصّعاب. لكنّني لم أواجه صعوبةً في الانهيار أبداً. - هنا جانبتَ الصوابَ، قالت. - كيف؟ أين؟ - لك أن تُخمّنَ ذلك بنفسك. - أيتعلّق الأمرُ بكِ؟ - كما قلتُ لك: تأمّل ذلك بنفسك. - ولكن يا أمي العزيزة، أعفيني. فإنني ميّتٌ قريباً. - **تأمّل!**

وعلى ذلك تَرَكَت الحُلمَ. ظلّت قاسيةً، وكان تأنيبُ ضميري ما جعلها هكذا، إذْ نادراً

ما كانت قاسيةً في الواقع ولم تكن متطرّفةً في القسوة هكذا على الإطلاق. لم أكن في الحقيقةِ كريماً ومتسامحاً معها، ولقد انتقمْتُ في أشياء صغيرة، أغلب الظنّ كي تُنَبّهني إلى برودي. لكنّها كانت على شيءٍ من البرود أيضاً، فلم تكن بكلّ جوارحها أمّاً لي سوى ما رأيتُ منها طالما كان أبي حيّاً، حبُّها الكبير الوحيد. بعد رحيله لم تُقوَ على أن تتجاوب بعمق مع وجودي أو أن تَسعَدَ به؛ غدوتُ تذكيراً باهِتاً ومُحبِطاً به أكثرَ مما ينبغي. ها هي تعود وتكون معي في أيامي الأخيرة. ليست بلا وجه، لحسن الحظ، بل تكاد تكون بوجهين: الأم التي ولدتني حُبّاً وتلك التي نَحَتَتْ جمجمةَ موتي. واهبة الحياة، واهبة الموت.

هنا في العالم اليَقِظِ أعيش ازدواجيةً أخرى. بيريت الرؤوم وأنييلا المُشتَهاة. قُربي منهما، خصوصاً من أنييلا، تُعكّر صفوَهُ التغيّراتُ التي تطرأ على جسدي، انهياري الفارض نفسه. لا يمكنني سوى لِفتراتٍ قصيرةٍ فقط نسيان أنني ببساطةٍ كريه الرّائحة. أرى أنّه كان بالإمكان تأجيل أمر الرّائحة، التي تجعلني في غاية الحرج أمام الممرضتين. وأفكّر ساخطاً: ألا يمكن لبعض الكلس أن ينزاح عني؟ ولأنني لا أستطيع الوصول إلى النافذة إلا بصعوبةٍ بالغة فيتوجّب عليّ أن أطلب من أحدهم فتحَها، وسرعانَ ما تُغلَقُ ثانيةً لأن برد الخريف قد أتى. ضعفي وانعدام قدرتي على الحركة يجبرانني أيضاً على طلب العون في طقوسٍ أكثر حميميّة. إنني أقترب من مرحلة التّعليب: ما زلتُ إنساناً ولكنني لم أعد رجلاً في عين المرأة. الدفء الأكبر الذي كان موجوداً حقّاً غدا لياقةً وتعاطفاً، والردّ عليهما كان امتناناً ورقّةً منضبطة. لقد انتهيتُ مِنّي وممّا لي، لن أُحاولَ فعل شيءٍ بعد الآن أبداً، ولن أمارس الحب بعد الآن أبداً. أنا بالكاد أستطيع أن أحلم وأتخيّل، الأمر الذي كان في السابق أحياناً يمكن أن يمنعني من أن أعيش حياتي.

Telegram:@mbooks90

ومن المضحك حقّاً أنّ وظيفتينِ من وظائف جسدي الثانوية لم تُجاريا البقيّةَ في هذا المنحدر: فالشّعر والأظافر تنمو كما لم يحدث أبداً من قبل، أو لعلّها كذلك على خبرةٍ بأرض هذا المنحدر وتريد استغلال الوضع طالما هناك وقت. إنني أجد نفسي متأثراً قليلاً بسبب هذا الولاء غير المتوقّع.

يأتي عرضٌ آخرُ للدعم من فريق القساوسة، الذين أبلغوني عبر بيريت أنّ بإمكاني الحصول على زيارة إذا كنتُ راغباً في ذلك. كنتُ سأثمّنُ العرضَ أكثر لو أنه جاء من فردٍ بعينه وله اسم، والأفضل أن يكون آنا -بريثا، وليس من جَمعٍ متستّر. ولذا أحجِمُ شاكراً. فلديّ إلهتاي اللتانِ تزورانني في الضرّاء. وفي ذلك ما يكفي من رعايةٍ للروح.

إنّما في النهاية حتّى هما لا تستطيعان مساعدتي، فأحاولُ مواساة نفسي بأن هناك عدداً لا يحصى من الموتى مسبقاً، وما على المرء إلا أن يدع موته الصغير يضيع بين الحشود. ثُمّ ألَمْ يسبقْ لي أن تمكّنت من تجاوز أبديّةٍ وأنا لم أولد بعد؟ مرةً أخرى يتجلّى انعدام الأنا كطريقٍ نحو تخفيف العذاب، جبانٌ قليلاً رُبّما ولكنّ هناك نجاحاتٍ عظيمةً نبّهني جورج إليها، دعنا من أنّها ما عادت تعني لي قدرما كانت سابقاً؛ لقد اختفت مادّيّاً قبل أيّام، عندما جاء ولَفلَمها بصمت وغادَرَ حياتي. شكرته قدرما استطعت بصوتي المحشرج. كَفَتني الكتب شوطاً طويلاً، إنّما ليس حتّى الوصول. الآن أقف وحيداً أمام الباب الأسود، كجميع من كانوا قبلي. ليست مواساة الفلسفة أكثر من مجرّد ذكرى.

إبادة الذات باعتبارها البروفة النهائية، قبل الإبادة الحقيقية، تترك ثغرةً لتسلُّل الأمل. أن تموتَ إلى الأبد، أليس هذا مَصيراً أشدّ عظمةً من أن يناله أشخاص مثلي، وبعنفٍ أكثر مما تستدعيه الضرورة؟ سفرٌ بعيدٌ لفترة، فلنفترض ذلك، لكنْ على أن يعود المرء ثانيةً وكأنّ شيئاً لم يكن، أليس ذلك أنسب لنا نحن سفاسف الكائنات؟ كان هذا مبلغ قدرتي قبل أن يضع سباتٌ لا يُقاوَمُ حدّاً للهذر.

في عَرَض الأحلام الذي تلا على الفورِ كان أول ظهورٍ لي في دور آكلٍ لِلُحوم البشر. عندَ وداعٍ دافئٍ لامرأةٍ كانت من المُقرّبينَ إليّ - في الحلم - تلذّذتُ عن حميميّةٍ خالصة بتناول قطعةٍ من أنفِها. لم يكن لديها أيُّ اعتراض، بل كانت أقرب إلى التأثُّرِ بحركتي وابتعدَتْ قبلَ أن أتمكّن من رؤية الخراب في وجهها؛ لم يشكّ أحدٌ منا للحظةٍ في أنّ الأنفَ الجميلَ سينمو ثانيةً. ولكنّ القلقَ جاء في اللحظة التالية: ماذا لو لم يحدث ذلك؟ هنا توقّفت الأحداث بسبب ألمٍ في المثانة.

بفتور عزمٍ أبحث عن تفسير في ذاكرتي المُطفأة. كان الإخصاء في متناول اليد.

ربما تحلُّل جسدي كذلك - لقد أذهلني كم كان الأنف طازجاً ويسيرَ المضغ، وبطعمِ الكمّثرى شديدة النضج. ولكن كيف أمكن لذلك أن يحدث وسط كل تلك الألفة؟ كان الدافع الجنسيّ جليّاً، إنما بمكر، وخفة، لا عنيفاً على الإطلاق.

أخشى أن يُسلِّطَ هذا الحلمُ الضوءَ على تَحَلُّلِ جسديْ قدرَما هو روحيّ. أعتقد أنني أسمع كيف ينهار الوعي ويصعد حُطامُه ليطفو على السّطح، وعلى الأغلب قِطَعاً من سطورٍ شعرية مثل «سعيي سيبدأ»، و«حان وقت العُجالة»، وEs wird ein Wein sein، و«هل تذكرين ربيعاً في لوند؟»(66)... لكنّه حقاً منطقٌ غريبٌ في هذه الفوضى، حيث كلُّ نقطة، وكل عبارة معزولة تدلّ على حالة الغسقِ التي لديّ ولكنّها تفتقر إلى الربط مع البقية. أنّ دماغاً معطوباً كهذا بإمكانه ابتداعُ نمطٍ صارمٍ كهذا! ربما يزداد اللاوعيُ حدّةً حين يبدأ الوعي بالهذيان، كما إنّ من الممكن أنّ ما تبقّى في جمجمتي أكثرُ مما أظن. لعلّ الحقيقة أنّني أستطيع التفكير بصفاءٍ إن كان هناك ما يدعو لذلك، ولكنّ لديّ أسباباً وجيهةً لئلّا أفعل. وأنّ الأفكار المتعلقة بالموت ليست وحدها ما أتراجع عنه، بل وبالقَذرِ نفسِهِ تلك المعرفة النهائية بالنّفس التي يُفترض بالحضيض أن يوفّرَها، أو يهدّدَ بها. لا يمكنُ أساساً أن تكونَ معرفةُ الإنسانِ بنفسِهِ شيئاً آخرَ عدا عن كونِها أمراً شنيعاً، إنّها تعني إغلاق الحساب والاستسلام إلى الأبد. يا حبّذا عندئذٍ جرعات أكبر، ربّما «الجرعة بأكملها» والموت في حيرة. من جهةٍ أخرى -..

حسناً، ها أنا وقد تأمّلتُ بالفعل ثانيةً. ليس لي، أو لَمْ يَعُد لديّ، طموحٌ في أن تكون لموتي جودةٌ بِعينِها. و«الكرامة» التي يكثر الحديث عنها؟ غريبٌ حقّاً أن مجتمعاً لا يبالي قيدَ شعرةٍ بالكرامة عادةً، يأتي فيشترطها عندَ موت المرء. هذا التدَبُّر الذي يتكلم هنا ينطبق على الأحياء في واقع الأمر. ولكنني سبق وذكرتُ ذلك حتماً.

مرةً أخرى فإنّ أنيبلا هي من تقطع المزيدَ من العصف الذهنيّ؛ إحسان. كنتُ طَلَبْتُها، إنّما ليس للحصول على المورفين؛ أنا حاليّاً خالٍ من الأوجاع تقريباً، وكم عجيبٌ مدى سرعة نسيان المرء حتّى للآلام المُبرّحة. أطلب تنظيف ما حول الحوض وعندما أشتكي قليلاً أسمع أنّ المفروض أنْ أكونَ سعيداً طالما يتم الخروج عبر

السُبُلِ الطبيعية. أها. أن أكونَ سعيداً، أن أكونَ راضياً، أقبَلَ، أستقيل. أن أكون مريضاً مُمتَنّاً سلبيّاً. لذا بينَما هي تقف هناك والوعاء في يدها كنتُ بما يكفي من البؤس كي أتحرّش بها في اعتراض خالص.

«كان الأمر سيكون ممتعاً»، استطعتُ القولَ، «لو أنني عرفتكِ حين كان فِيّ المزيدُ من الحياة».

«لأنك عندئذٍ كنتَ سَـ -»، تُجاري التمثيلية!

«نعم، لِمَ لا؟ حذارِ، فربّما أغدو أنشط. وأنهض ثانيةً. وأنتصب تمام الانتصاب».

«ذلك ليس مفيداً لك». تضحك في الواقع. رائع.

«الـ«ليس مفيداً» أمرٌ طيب! أيجب عليّ أن أفكر بمستقبلي كذلك؟ صُبّي لي قليلاً من النبيذِ لُطفاً. لن يموتَ أحدٌ هنا، هنا سيسكر أحدهم».

لديّ قنينة نبيذ أحمر رمزية في الخزانة التي إلى جانب السرير. أنالُ كأسي، آخذ رشفةً تنزّ عني فوراً على الشرشف؛ دفقةً لونيّةً جميلةً فعلاً وسط هذا الديكور الباهت. فإذا بنا نضحك ضحكةً أخرى معاً، ويتمّ تعليق طقس الحوض لهذه المرة. أنا راضٍ حقّاً. أشعر وكأنني نجحت في إذلال الشرّ.

لا تكون الحركة وأنت في الحضيض إلا صعوداً، كما يسمع المرء عادةً. لكنّ الانتعاش لا يدوم، فما كادت أنييلا تترك الغرفةَ حتّى عدتُ إلى البؤس الذي يتطلّبه الجسد. لا حياةَ دون أنييلا، وطعم النبيذ في الفم لاذعٌ وعفِن مثل خلٍّ فاسد، الطَعم الذي ينذر بشيءٍ غير مألوفٍ وعدائي. أم أنّه مجموع المذاقات المتبقّية في الفم من كل ما فعلتُ وما لم أفعل في الحياة.

ولكنني لم أرِد ولم أُطِق تحليلَه، وكنتُ في ذلك عنيداً. أُفَضِّلُ شطفَه؛ أخذتُ رشفةً جديدةً وكان لي أن أحتفظ بها. ما دمتُ لم أراجِعْ حياتي سابقاً عندما كانت القوّة موجودةً، فلا معنى للبدءِ بذلك الآن. ضعفي هو حُجّتي. السبب الحقيقيّ هو طبعاً أنني سئمتُ نفسي وبدأتُ أشعر بالضجر. إنّما ليس بدون خيوطٍ صغيرةٍ للرغبة في البكاء، كما هي الحال الآن بعد أن تناولت القليل من النبيذ. غنيتُ مرّةً Es wird

ein Wein sein, und es wird nimmer sein (67)، في موكبٍ نمساويٍّ من فييِنا على المسرح، أو ربما كان ذلك في برنامجٍ إذاعي. إنها تُعَبِّرُ بالضَبط عن حالتي الذهنية الآن، طالما أنَّ الألمَ هادئٌ ويخِزُ عن بُعد. هي عَدَمِيَّةٌ خالصةٌ بالطبع، مع نكهةٍ من تَرَف.

على مضضٍ أُذَكِّرُ نفسي بسيوران، وهو عَدَمِيٌّ من نوعٍ آخر وأحدُ المُفَضَّلينَ لدى جورج. فهو يدّعي أن جمال العذابات يكمن في أنَّها تمنعنا من الوقوع في اللامبالاة. حقّاً؟ شكراً، ولكنَّ ذلك أكثر تطهيريَّةً مما أطيق. وفي مرةٍ سواها يحتفي بالموت عَلَناً ويراه تقدُّماً مقارنةً بالحياة، التي لا يستطيع المرء فيها أن يعيش السعادةَ قبل أن يغدو خَرِفاً. لَنْ يكونَ لي إذَنْ أن أعرفَ السعادة. أرى أن سيوران أكثر دَلالاً مما ينبغي، فليس المرء بحاجةٍ لأن يصبحَ خَرِفاً كي يتمتّع بسعادةٍ غيرِ منعكِسة، فهذه مُتاحةٌ حتّى للأطفال والعشّاق. بالإمكان ملاحظةُ أنَّ المتحدّثَ هو ابنُ قسٍّ مُرتَدٌّ، خاصّةً عندما يقول أنَّ التَّكَهُّنات عن حياةٍ بعدَ الموت هي أنسب ما تكون لأناسٍ عاطلينَ مثلِ بوذا ويسوع؛ لو أنّهم يعملون بدوامٍ كامل لكانوا شكّائينَ عاديينَ وبُلَهاء. أصلُ الكراهيةِ الشّهوانيّةِ التي يُكنُّها سيوران للدِّينِ هو الكَبَث؛ إنه يُذَكِّرُ بواعظٍ يلعنُ الأفلامَ الإباحيةَ باستمرارٍ فيفضحُ بذلك معرفةً شاملةً بالمادة. حاجتي الشخصية إلى الدِّينِ والميتافيزيقيا لم تكنْ كبيرةً أبداً، ولكنّني يجب أنْ أُقِرَّ أنَّ المسيحيةَ منحت دعماً للضمير، حتى لا يضطر المرء إلى «أن يعجبَه الوَضع» ويتكيَّفَ مع الظروف التي تكون راهنةً لحظَتَها. ما ينطبق الآن هو التَّكيُّفُ حتى الموت، إنَّه حقّاً خطأنا الكبير الذي يمنعنا من أن ننمو. ما الذي يمكن للمرء أن يتمترسَ به ضد ذلك؟ إنْ قلتُ بِسُلوكٍ مُعَيَّنٍ أكون استخدمت كلمةً أساءَ استعمالَها الأشقياء؛ ما أعنيه هو الدّعم المتبقّي للضمير في عالمٍ شرير: موقف مستقل. مهما كانت حياتي مبعثرةً وأنا أعيد النظر إلى ما كان منها، فَقَد فعلتُ أفضلَ ما كان بوسعي وحاولتُ أن أعيشَ عيشةً فاضلة. لكنّني لم أمتلك ما يكفي من القدراتِ لا إنسانياً ولا فنّياً. لم أرسمْ لوحتي أبداً، وحدَهُ إطارُها اكتمَل.

ها قَد أضنيتُ نفسي ثانيةً. تساورني دوخة وغثيان يُذكّرانِ بدوار البحر. لا آلامَ مباشِرَة بل نوعٌ جديدٌ من الأعراض، رُبَما شربت النبيذ في رشفاتٍ أكبرَ مما ينبغي. كما أشعرُ بِطَعْنٍ في القلب تكرر عدةَ مرات؛ حتى هذا شيءٌ جديد. يجب أن أنهضَ فوراً، أذهب إلى التواليت، لا وقتَ لانتظار الممرضات. تُنشِبُ آلامٌ معويةٌ مخالبَها فيّ بشراسةٍ قاتلة، لا أرى سوى ضبابٍ، كل قِوايَ تتسرّب مني، وما سواها أيضاً، لا أقوى على النهوض. أضغط على الزرّ.

تهرَعُ بِيريت إلى مساعدتي، أعزّي نفسي قليلاً بأنها لم تكن أنييلا. إجراءات التنظيف مثيرةٌ للاشمئزاز ومُعَذِّبَةٌ ومُهينة. تقول أنّ الوقتَ قد أزِفَ لعملية شدّ كيس على البطن. تبذل قصارى جهدِها لئلّا تسمحَ للأمرِ بالتأثيرِ عليها، وأنا ممتنٌّ لذلك. ولكنني أقول لا. أمرٌ مُمِضٌّ أن أتسبب بمزيدٍ من الإزعاج، لكنّ ذلك لا يعني القبولَ بتدخُّلٍ جراحِيٍّ مُضاف في حين أن الأمر ميئوس منه على أية حال. ما لا أقوله هو أنني الآن أريد نهايةً، للمرة الأولى أريد ذلك من كلّ قلبي. الآن تضاءل وجودي، وحواسّي من الضعف حدّ أنني لا أحسُّ بالعالم الخارجيّ إلا وكأنّه بطانةٌ باردةٌ تلفّني، لا أرى سوى ضبابٍ رماديّ.

تعطيني حقنةً وتجلس عندي لبرهة. أشعر بالبرد أول الأمر لكنني سرعانَ ما أحسّ بالدفء من وركها الذي يجسّ ساقي بخفّةٍ، كأنّه صخرةٌ مُنقِذةٌ في بحرٍ بارد. ببطءٍ يتحسّن كلُّ شيء، ينفرج الضبابُ عن الواقع ثانيةً، ولِمَرَّةٍ تبدو لي غرفتي جميلةً: اللوحة الإسبانية، المزهرية وزهورها على الطاولة، النافذة المواربةُ كوعدٍ بالحرية. لقد هدأت الرغبة في الموت وأنا أغفو على دفء بيريت. وأنام بلا أحلام.

عندما أستيقظ يكون الظلامُ قد حلّ، ولِلَحظةٍ أشكّ بأنني مستيقظٌ فعلاً، لعلّ الطبقاتِ العميقةَ قد وَطّنَت نفسَها على عدم الاستيقاظ بعد الآن. ولكنني يقظ، يقظٌ حدّ الغرابة، والظلامُ ليس مُظلِماً تماماً. أرقد على ظهري كما هي الحال دوماً، لا أقوى على ما عدا ذلك. يأتي ضوءٌ مُبهَمٌ من النافذة. إنّ مُرَبّعاً على سقفي الأبيض هو أشبه بسطحٍ مائيٍّ مُضاءٍ إضاءةً خافتة. من جديد لدي هذا التصوُّرُ العجيبُ بأنني أحلّقُ هناك في الأعلى، في حالة انعدامٍ للوزن. لا تزالُ النافذةُ مواربة، والجو معتدلٌ في

الخارج، تنتابني رغبةُ أن أتدفّقَ خارجاً عبر الفتحةِ مثل وشاحٍ من ضباب و«أموت على العشب المُزهر»؛ تخطر لي تلك الكلمات تحديداً.

أُغمضُ عينيّ، لا أفكّر بشيء، لا آلامَ لديّ. عندئذٍ أشعر بهفهفةٍ عليلة على خدّي، عطرٍ لا أعرفه، لمسةٍ ناعمة. عندما أنظر إلى الأعلى، أجد خفّاشاً يتدلّى من السقف، في الزاوية البعيدة. انسحبَ مبتعداً عن حقل الضوء ولكنني أرى كيف تراقبني عيناه عبرَ تجويفَينِ مُظلِمَينِ في وجهه الجمجميّ الصغير. أنا مأسورٌ بزيارته، مأسورٌ دونَ حزنٍ أو اضطراب، تدمع عيناي؛ مضى زمنٌ طويلٌ على آخر مرة. ينتابني نوعٌ من الانهيارِ المهيب، وفي لمح البصر أصيرُ طفلاً يتوق إلى أن يصبح كلّ شيءٍ على ما يرام ثانيةً، إنّما دون قلق، واثقاً من تحقيق أُمنيتِه. طفلاً ثانيةً، أقول لنفسي، ليست بالمفاجأة السَيّئة. جوٌّ كثيف وغير واقعيّ، عاطفيٌّ قليلاً ولكنّه أريبٌ أيضاً، وإنّه لَذلك الكائنُ هناك في الأعلى، هادئاً وشديد الملاحظة، من استحضره. كيانٌ لطيف من عالمٍ آخر؛ لا يطلبُ الحمايةَ، بل يحمي. وبهدوء وأمانٍ أغفو ثانيةً.

أشعرُ أكثرَ مما أرى أنّ أنييلا في الغرفة، ولهذا أستيقظ. لا أملكُ أدنى فكرةٍ عن طول ما مضى من الوقت - ساعة، دقيقة - لكن الظلام والضوء الخافت على حالهما كما سبق. لقد ترك الخفّاشُ مكانَه، لا أستطيع رؤيتَه. تقتربُ أنييلا بهدوء، شيءٌ ما يوحي لي بأن أُغمِضَ وأتظاهرَ بالنوم، ولكنني قُبَيلَ ذلكَ ألمح فستانَها الأزرقَ ذا النّقاط الفاتحة، ذلك الذي ارتَدَتْهُ ليلةَ احتفلَ رفيقَايَ وماتا. حين تعتقد أنني نائمٌ ترجع أدراجَها وتخرجُ هادئةً كما جاءت.

لا ألاحظُ اقترابَ النهايةِ على نفسي وحسبُ، بل وبالوضوحِ ذاته في تفصيلةٍ خارجيّةٍ: ازديادِ وتيرة التنظيف. أرى أنّه كان بإمكانهم الانتظارُ ليفعلوا ذلك. ولكن حين يأتي أجلي فسيعودُ الأطبّاء حتماً ليُعاينُوني ويومئوا برؤوسهم ويُعلّقوا، وعندئذٍ يلزم أن يكون المكانُ مُرَتّباً ولطيفاً هنا. الميزة الوحيدة لِهَوَس التنظيف هي أنني أحظى بالمزيد من رؤية المُنَظِّفِ الأسودِ المحبوب وأناقة سلوكه، إذ لا تبدرُ منه حركةٌ شعواءُ أو خرقاء. أعتقد أنّه مأخوذٌ بالبيئة الأنثوية تماماً، فهو يسير كَمن به ثمالةٌ ساكنة.

نعم، الآن يبدأ الفصلُ الخامس. السؤال هو كم سيطولُ. لعلّي أبدو ميّتاً بالفعل مُسبَقاً لأنّ حمامةً قفزَتْ داخلةً عبر النافذةِ صباح اليوم، وكأن الغرفةَ كانت شاغرة. ولقد كانت كذلك منذ مدّة طويلة بالفعل، من حيث كوني حيواناً عاجزاً عن تحديد منطقته. ليس في نيّة هذه الحمامة نقرُ وقَلْعُ عينيّ، ليس بعدُ على الأقل، ألقَتْ نظرةً دون أن تهتمّ لأمري - كما فعل الليمور ذو السترة الصفراء - ثمّ نَطّت إلى الخارج ثانيةً. أُفَضِّلُ الخفّاشَ وآمَلُ أنّه يريد العودة. وليت ذلك يكونُ الليلةَ.

لكنّ ذلك لم يحدث. لا في تلك الليلة ولا التي تلتها. مات موليير على خشبة المسرح وهو يمثل **مريض الوهم**، وظنّ الجمهور أن ذلك جزءٌ من المسرحية. أمرٌ فريد. أما أنا فمريضٌ على فراش الموت طبقاً لجميع القرائن، لكنّ خاطراً بدأ يخطر لي أنني لا أموت. إنّه أمرٌ يُوتّر العاملينَ، وكذلك مُمَرِّضتَيّ حتّى وإن تَكَلَّفَتا عدمَ إظهار ذلك. ربّما سيأتي مولّر نفسُهُ قريباً حتى يلقي نظرةً على العجوز البليد ويدعي الشرفَ لنفسه.

لا أعلم ما الذي سبَّبَ هذا الانحراف. حتّى عملية الكيس لم تَعُد أمراً مُلِحّاً، فالوظيفة عادت إلى طبيعتها من جديد بعد ما جرى. لا أعاني من الحُمَّى حتّى. أغلب الظنّ لأنّ جسدي لم يزل ينفث البخار، بينما تقرُّح الرّقاد على حاله وآلام الأمعاء تشتدّ وتحتدّ. لكنني وبالأدلّةِ أفضل، لم أعد من ركّاب قطار الأرواح. لا بحيث يمكنني الأمل ثانيةً، فذاك أمرٌ ولا أبعد، لكنّ بإمكان النّهايةِ أن تنتظرَ قليلاً بعدُ، مما يسمح لمولّر أن يَعُودَني بعد أن يطّلع على القِيَمِ الجديدة في التقارير التي وصلته عن حالتي. ولا يبدو أنه سيرى فيها تقدُّماً.

قد أكون مصاباً بالبارانويا، ولكنّ الشعورَ الذي يملأ الأرجاءَ هو أنّ عليّ الإسراعَ في الأمور. في ميثيولوجياي الحميمة فإن الفضل كلُّهُ يرجع للخفّاش. يريد مني أن أتبعَهُ فأختارَ الطريقَ عبر النافذة. سوف أقتل نفسي وسيكون ذلك بمثابة حَدَثٍ أخيراً، ختاماً عظيماً ثم تُسدَلُ الستارة. الحدث هو كل شيء، تَذَكَّرْ بورية وهازي، يا للبراعة! للدراسة والتأمُل وقتهما، لكنّ الفِعْلَ وحدَه هو ما له قيمةٌ في النهاية، كذلك فإنّ الحبّ فعلٌ وحَدَثٌ أكثر من كونه شعوراً. والموت، لِمَ لا؟ لقد ذكرتُ أنّ ثلاثةً من أعزّ أصدقائي أنهوا حيواتهم بأنفسهم. خطأً في نظري، فقد كانوا لا يزالون شباباً، كان بإمكانهم المُضِيُّ في حيواتهم لكنّهم لم يروا المخارج التي كانت موجودة. لقد افتقدتهم. ومع ذلك فقد أكبَرتُ شجاعتَهم. وماذا بشأني أنا، هنا والآن؟ إن السقوط يجري بمجراه الجهنمي، دون رجعة، لا شيء لي هنا ولست أُسعِدُ أحداً بمطّ حياةٍ مبتورة. إذَنْ فما الذي يعيقني؟

القتل الرحيم أمرٌ أبتعد عنه بإرادتي، ولا أعرف عموماً إن كان الحصول

عليه مقبولاً أو ممكناً. كلّا على أغلب الظن إنْ سأل المرء الدكتورة فودارز. علّمتني دراساتي أنّ الثاناتولوجيينَ غالباً ضدّ القتل الرحيم وأخصّهم في ذلك الثاناتولوجيون الألمان، لأسبابٍ تاريخيةٍ جليّة. خبراتي في شأن المرحلة النهائية تثبتُ صحةَ ما ذهبوا إليه. أن تكونَ أو لا تكون: تتأرجح الإجابة على هذا السؤال تبعاً للحال الراهنة، هذا ما تعلّمتُه من جسدي وروحي أثناء هذه الأسابيع، وهو في نظري سببٌ كافٍ كي أرفض تلك الرحمة. ثمّ ألا يكونُ إهمالاً للمسؤوليةِ أن يُترَك القتلُ لآخَرَ لا يعرفك حتى بالكاد؟

لعلّ الانتحارَ أمرٌ متسرّع ولكنّه فِعلٌ مشروعٌ دائماً، فكلٌّ مِنّا يتحكّم بحياته. في حالي هذه فإنّه لن يعدو أن يكون حقّاً. ولقد راودتني الفكرةُ سابقاً في حياتي، مرةً واحدةً فقط، ولدوافع أخرى، بل عكسية: لا لشحّةِ طاقة الحياة بل لفيضِها. كان الدافع هو الحبّ العظيم، والذي هو أيضاً تجربة اقترابٍ من الموت. وذلك بملموسيّةٍ تامّة، توق إلى الموت المشترك إنّما لا عن يأسٍ أو تبصّر بل من فرط السعادة، ليبَسشُود(68) رومانسيّ. فَتَنّا بعضنا البعضَ بِصِيَغِ الإيروتيك المطلق، وقفنا ملتفّينِ على حافّة صخرية عند البحر وقلنا لبعضنا البعض أننا بهذه الطريقة وحدها يمكننا الحفاظ على الكمال الذي عشناه، نعم بتَصعيدِه - ثم إطفائه بلا شكّ أيضاً، لكننا كنّا سننجو من الانحدار الحتميّ. كنا متّفقينِ إلى حدٍّ لا يمكنُ تكرار بلوغه، ولكننا لم نقفز. ولم يلبث الانحدار أن جاء، تماماً كما توقّعنا، وكانت النهاية أنّها تركتني من أجل مُحامٍ امتلكَ شقّةً أكبر وفَرَساً.

لماذا هذا الاستطراد نحو الماضي السّحيق؟ لا لشيءٍ سوى لأقول أنّني الآنَ كما في حينه أكثرُ جُبناً من أن أقفز وأنهي ما قد انتهى مُسبقاً بالفعل. مَنَحتني دَورَةُ جورج المُكثّفةُ في فنّ الموت الكثيرَ من الموادّ التي يجدر التأمّلُ فيها، لكنّ مُعظَمَها تَبَدّدَ بكلّ ما فيه من حكمة ولم يتبقَّ سوى خدرٍ لطيفٍ خَلْفَ العظم الجَبهيّ. وللضرورة فقد احتفظت بقليلٍ من كتاب پيتر نول الذي يقع ضمن تاريخ حالتي المرضيّة. وللتندّر حقّاً فإن ما عَلِقَ هو أفكار لا أعتنقها: أنّ فكرةَ الموت تجعل الحياةَ أكثر قيمةً وأنّ الموتَ يصبح أسهل إذا ما انشغل المرء طوال حياته بهذه الفكرة. لا بُدّ من أنّه صادقٌ، إنّما بالنسبة لي فهذا ليس صحيحاً؛ ولا حتى حينما يزعم أن الرغبةَ تتحوّل

في نهاية الأمر إلى محبّة. على خلاف ذلك فممّا عشتُه أنّ الاستعدادَ للموت ينشأ عند النشوة الشّديدة - وجبةِ طعامٍ مثالية، جِماعٍ ميمون: حين يحصل المرء على الجرعة المُثلى وما مِنْ شيءٍ آخر يمكن أن يُضافَ. لكنني سبق أن خضتُ في ذلك ولم يعد أمراً ذا صلة. على أية حال، ليس لديّ وازع دينيّ أو سوى ذلك ضدّ أن أضع نقطة النهاية بنفسي. ولكن، كيف سيتمّ ذلك؟ بعد تحسُّني الصغير، غير المتوقَّع والمؤقت حتماً، أستطيع حقّاً أن أحملَ نفسي لأصِلَ حتّى النافذة. ولكنني لا أريد أن أتحطّمَ على الأرض التي ما عادت نوعاً من العُشب بل صارت وحلاً خريفياً لزجاً. الارتفاع ليس كافياً، أخشى أن لا أموت. أُتجَهّزُ أنييلا حلّاً ما؟ في تَسَلُّلِها بخفّةٍ في العتمة تلك الليلة شيءٌ من مَلاك موت، وليس بوسعي أن أتمنّى واحداً أجمل. والفستان، فستان الحفلة من أجل إسعادِ الرّفيقينِ. إنّما هل تَجرؤ حقّاً؟ لم أُوَقِّع على أي حظرٍ لتشريح الجثة، وأنا مُعرِضٌ بعناد عن موتٍ من هذا القبيل، ينقذه إنسانٌ آخر - حتى إذا كان هذا الإنسان أنييلا فيكون بهذه الطريقة «ليبَستوداً» لقلبٍ وحيد.

تأمّلاتٌ مُرهقة. يُدَمدِمُ المُحَرِّكُ الذي تحتَ السرير متفهّماً حينَ أخفض طرف رأسي لكي أتمطّى بارتياحٍ وأستمتع للحظةٍ بالتّحرُّرِ الثمينِ من الألم. شرع الظلام يحلّ ولكنني أجد صعوبةً في الاسترخاء، إنني أنتظر زائري الصامت. حسناً، يبدو أن الانتظار سيطول. بدلاً من ذلك أحظى بأشدّ الزيارات إثارةً للدهشة: الدكتورة ڤودارز. التي لم أرَها سابقاً إلا لَمحاً حينَ تمرُّ مروراً خاطفاً بمعطفها الأبيض المهفهف في الممر. الآنَ أرى أنّها امرأةٌ رقيقةٌ إلى حدٍّ ما، ذات شعرٍ ممشَّطٍ إلى الخلف يغلب عليه اللون الرمادي وجبهةٍ ضيقةٍ، بيضاء **ولامعةٍ**، كالخزف. لا تبدأ بالتّحية بل تجلس متنهّدةً على كرسيّي في الزاوية.

«طبيبةٌ في هذه السّاعة المتأخّرة من النهار؟ عَجباً، دكتورة ڤودارز».

تُحيّيني بعجالة. أظنّها لا تفهم السويدية ولا تبالي بنبرتي الساخرة. إنها مستاءة، أو مرهقة فقط. بلى، إنها مستاءة، تقول أنّها قد سمِعَت أنني شخصٌ متعلّم، وهي تودّ فعلاً أن تتحدّث مع أحدِ مريضٍ مثلي وليس طبيباً. ثم تأتي خطبةٌ طويلة عن أوجه القصور في السويد فيما خصّ الرعاية الصحية في مرحلة المحطة النهائية، فلسفتها

وتنظيمها، وعلى الأخص الجهل الهائل في مادّة تخصُّصِها، الثاناتولوجيا، وهو أمرٌ مثيرٌ للاستغراب في قسمٍ يبلغ فيه معدّل الوفيات مائةً في المائة، دون احتساب المرضى الكثيرينَ من غير القابلينَ للشفاء الذين يُقَرِّرُ خروجُهم من المشافي كي يموتوا في المنازل. تشكو من أنَّ لديهم هَوَساً بإرسال الناس إلى بيوتهم. أحاولُ إيرادَ أنَّ الأمر ربما يرجع إلى أسبابٍ اقتصادية، فكلُّ شيءٍ عندنا له أسبابٌ اقتصادية، ولا يتفاخر أحدٌ بذلك مثلما يحدث في بلدان عديدة أخرى. تواصل حديثها دون أن تلاحظ مداخلتي. إنَّ الكفاءةَ الثاناتولوجيةَ، تقول، والرعايةَ الصحيةَ في مرحلة المحطة النهائية عموماً، لا يمكن أن تُطَبَّقا بالتّمام والكمال إذا لم تتوفّر مؤسسات تعنى حصرياً بهذه الفئة من المرضى - usque ad finem(69)، تُضيف كأنّما لتمتحن «تعليمي».

تقول ذلك كلّه بانجليزيةٍ ركيكة، صوتُها رفيع ولكنّه شَجِيّ. أستغلّ تَوَقُّفاً غيرَ متوقَّعٍ لأُعربَ عن أسفي، كوني أعيش المَوات حقّاً ولستُ ممن أُرسلوا إلى بيوتهم، لأنني ليس لدي الكثير لأضيفه في هذا الموضوع ولكنني بالطّبع أتفق معها إلى حدٍّ كبير. عندئذٍ أعتذر منها لكوني متعباً، وأشكر لها زيارَتها وأُعدّل من رقدتي للنوم. انتهت الجلسة. ثم لا أسمع المزيد، وحين أفتح عينيّ بعد دقيقةٍ أو دقيقتينِ تكون الحلقة السّريالية قد انتهت؛ لقد ابتعدَتْ دون أن تُصدِرَ صوتاً.

وكان نومٌ، دون انقطاع. مضى زمنٌ طويلٌ منذ آخر مرة. لكنّ ما أهَمَّني في الصباح أنني بذلك قَوَّتُ صديقي ذي الجناحين الحريريَّينِ - هذا إن كان جاء إلى هنا. أتحدّث إلى أنييلا التي تأخرت قليلاً بالمورفين؛ إنني أتألّم ثانيةً، على أنّ الألم أقلّ مما كان قبل يومين. لا أذكر لها حتى زائري الصامت؛ يكمن الكثيرُ من قوّته في كوني وحدي من يراه. ولكنني سأحكي عن ڤودارز وما أهرَقْتُهُ وأرجو أن يبقى الأمر بيننا، إذ لا أريد أن يشيع أنّها منحت ثقتَها لمريض. تمتعض أنييلا ولا تقول شيئاً. يُضايقني ذلك، ودون تَرَوٍّ أُضيفُ أنّ ڤودارز ضد القتل الرحيم. ليس لديّ ما يُسند ذلك، إذ لم تتفوّه بكلمةٍ عن القتل الرحيم أثناء محادثتنا القصيرة، كان شيئاً أوّلتُه لمعنى كلامها عن العناية بالحالاتِ الميئوس منها usque ad finem، وقد عزّز ذلك موقفي نفسه.

تتجمّد أنييلا وتتجنّب نظرتي، ولا تقول شيئاً حتى. واضحٌ أنها تعتقد أنني أسعى إلى شيءٍ ما. وهو كذلك بالفعل، أريد تحصينَ نفسي من إغواءِ تَقَبُّلِ هذا النوع من الرحمة فهي تُمَهِّدُ لأرواحٍ شريرة قد لا تعرف أنييلا بوجودها. تمضي في طريقها واجمةً، دونَ أن تلوِّحَ عندَ البابِ على عادتها.

هذه ليلةٌ جديدة. الآن تأتي الانتكاسة. بعد ثلاثة أيامٍ مُتْزِنة أصير بسرعةٍ أسوأ. ولقد كان ذلك مُنتَظَراً. آلامٌ قديمةٌ وجديدة، لا نوم، جرعاتٌ أكبر من المورفين. ما الذي أنتظره الآن؟

أنا عازمٌ على البقاء يقِظاً وأرفض وسائل المساعدة على النوم. النافذةُ مفتوحةٌ تمامَ الفتح، ليست مواربةً وحسب. الجو معتدلٌ ورطبٌ في الخارج. أُطفئ وأنتظر. الضوء القادم من الخارج، مُنَدّىً بالمطر الرذاذ، يلهو بقلقٍ على السّقف.

تمضي بضع ساعات ولا شيء يحدث. لذا فإنني أغفو بالطبع، حتى ولا من أجل صديقي الجديد أطيقُ السّهر. أنا أكثرُ تَعَباً من أن أعيش. لكنَّ صوتاً يخترقُ نسيانيَ عديمَ الزمنِ عديمَ الأنا، مرّةً، عدّةَ مرّات، صوت خشخشةٍ كما لو أن أحدهم يفتح طيّةَ منديلٍ ورقيّ بأطراف أصابعه. يوقظني ذلك تدريجياً، أنظر إلى النافذة وإلى المربع المضيء على السقف، لم يعد يتحرك، ولم تعد تمطر. والزاوية فارغة. لا خفّاش. أُشعل المصباح، وعندئذٍ أراه. إنه يجلس، أو يتدلّى من السقف فوق رأسي مباشرةً. إنه ساكنٌ تماماً، ترقبني العينان الكبيرتان، وكأنما من فوق كتفه، اختباراً إنّما عن ثقةٍ أيضاً. تغرورق عيناي بالدمع ثانيةً؛ سطوةٌ هائلة. إنه حب. أعتقد أن الطبيعة تخترق دواخلي بنظرها، ترحّب بعودتي بعد رحلتي الطويلة. أفكّر بحلمي عن القط وأتذكر زائراً صامتاً آخر رمقني بالنظرة نفسها، نظرة عالَمٍ آخرَ، مستقل. كان ذلك خريفاً في طفولتي، وكلَّ صباحٍ عندَ الفجر يقطع ثعلبٌ أرضَنا، دائماً في المسار نفسه، يتوقف فجأةً عدة مرات وينظر إليّ حيث كنت أقف عند نافذتي المفتوحة ليواصلَ بعدها ويمضي في طريقه بعيداً. ليلةً إثرَ ليلةٍ كنتُ أسهرُ حتى مجيئه عند الفجر، وهو وقتٌ من النهار، فيما عدا ذلك، كنت وما زلت أخشاه. كنتُ معجباً به حقّاً وأردتُ فعلاً أن يعرف ذلك. ثم إنه في أحد الصباحات لم يأتِ، ولا حتّى في الصباح التالي ولا الذي تلاه وتناهى إلى سمعي فيما بعد أنَّ طاعوناً قضى على جميع الثعالب في المنطقة. كنت في الثانية عشرة من عمري. حزنتُ عليه طويلاً - وما زلتُ حزيناً عليه حتى الآن -، كان لِخُطاه المهيبة الواثقة في المشهد شيءٌ مهمٌّ تقوله لي، لكنّني لم أعرف ما هو. ما زلتُ لا أعرفُ حتّى الآن وعمّا قريبٍ سأختفي بِدَوْرِي.

Telegram:@mbooks90

لا يتحرّك الخفّاش من مكانه، رُبّما يكونُ قد نَشَرَ جناحيهِ قليلاً. هذان الجناحانِ المطويّانِ يُذكّرانني بهازَي وطيّاتِ ذراعِه، ويُخَيّلُ لي أنني أمدّ يدي حتّى السقف لألامِسَ جِلدَهُما الناعمَ الذي هو في الوقتِ نفسِهِ جلدُ هازّي؛ لم يعُد أثرُ حَرقِه يُخيفني. سُكونُ الضيفِ الرّائقُ، وموقفُ انتظارِه الموجّهُ نحوي مباشرةً، هما نقيضٌ صارخٌ لارتطاماتِ فَراشِ الليلِ العصبيّةِ بمصباحِ السرير. أستشعر كيفَ يسحبُني إليه، كيف أُرفَعُ ببطءٍ نحو السقف وأنا داخل مجالٍ آخر ليسَ مجالَ الحلم بل يقظة أكبر. أُمتَصُّ إلى داخلِ نظرتِه، أسقُطُ نحوَ الأعلى داخلاً إلى سماءٍ عميقةِ الزُّرقة. فيتغير المنظور، كل ما بقي عندي يصبُّ في هذا الكائن الذي يتقبّلني بلطف، أنا واحدٌ معه، **هو** حضوري المتبقّي. من الأعلى أرى جسدي راقداً هناك في الأسفل، الجسدَ بائسَ التّحولِ مُمَدَّداً على الظهر، مُعذَّباً ومهزوماً. ذاك **هو**، راقداً، أقول لنفسي، ولأوّل مرةٍ في حياتي أشعر أنّ هذا الجسدَ ليس ملكي وَحَسبُ بل هو صديقي، هو الوحيد الذي وقفَ بإخلاصٍ إلى جانبي. رؤيَتي لهُ أخيراً هكذا هي بداية انفصال، وداع. والخفّاش هنا كي يجعل هذا الوداعَ أسهل لَنا.

بعد ذلك يأتي دور الظلام، شباكُ سعيدٌ عديمُ الصُوَر. يُقاطعه خَفقٌ خفيفٌ لجناحَينِ على جبهتي؛ الآنَ أميّزُهما ولا أخاف ذلك الضغط الصغيرَ الرّطبَ الذي سَيَلي بعد ذلك، كقطرةِ ماءٍ واقعة، قُبلة وداع. بعينينِ نصف مغمضتينِ أراهُ يُرَفرِفُ عبر النافذة، متمايلاً قليلاً ومضطرباً، نحو نور الفجر.

هكذا إذنْ فقد تَمّ الوداع، تمّ تلقّي التّحيةِ الأخيرة وَرَدُّها. لكنَّ الجسدَ هو من يُعارِضُ الآن في المنعطف الأخير؛ رُبّما يصيحُ طلباً لاتصالٍ إنسانيّ، كلّا بل طلباً لإنسانٍ واحدٍ ووداعٍ آخَر. لقد استبقتُ الأحداثَ بنشوتي وصعودي. يغدو سباتي قصيراً، الآلامُ تضربُ من جديد، أساسُها رهابُ الحرمان، وتبدأُ جولةٌ جديدةٌ من المعاناة بعدَ أنْ أمِلتُ أنّها انتهت. بإمكاني طبعاً أن أطلبَ حقنةً من الممرضة الخافرة، ولكنّها حديثة عهدٍ معي، وعندئذٍ سيكون هناك سجالٌ ولا أريد مغادرةَ الحياة متسوّلاً. الأحرى أن أحاولَ الاحتمالَ حتّى تأتي إحدى «ممرضاتي» عند الساعة الثامنة. هذا إذا أطَقتُ كل هذه المدة، إنها تقرب من الساعتين. نفدت الذكريات جميعها وكل تأنيبٍ للضمير، نابت آلامُ العضلاتِ والأوتار عن كل ما عداها وكل ما

أستطيع التفكيرَ فيه وصياحَه هو **دَعوني ودَعوا الأمرَ ينتهي وساعدوني!** هذا تسوّلٌ أيضاً ربّما، ولكنّه على الأقلّ غيرُ موجّهٍ إلى أحدٍ بعينِه - أمْ هو كذلك؟

سيكون هذا «الأحدُ» أمّي في هذه الحال، وهنا سيطلّ الضميرُ برأسِهِ مع ذلك، **إلى أقصى الحدود.** ولكنّها لا تُجيب، أنّى مَدَدتُ خيالي الجامح. لذا فإنني أُحَدِّقُ إلى داخلِ المصباح وأحاولُ إلهاءَ نفسي بِعَدِّ الحشراتِ في محيطِ الضوء النحيل، وهي تضجر أيضاً بالمناسبة وتبتعد نحو النّافذة وضوء النهار.

الآن أشعر بالبرد كذلك، لكنّ البردَ يأتي من الدّاخل، فهواء الصباح معتدل. لا بدّ أنّها رعدة الحمّى، إذ أنّ آلامي، ويا للعجب، تهدأ حتّى أنني ببساطةٍ أغفو لبرهة، وأسناني تصطك. وعلى هذا المنوال يستمر الأمر حتى تقف بيريت أمام سريري والحقنةُ المُنقِذَةُ في يدها. أيقظَتْني الاصطفاقة عندما أغلَقَت النافذة. يا للّعنة، دارَ في خلدي، إذن فمن الممكن إيقاظي!

«وتنوي أن تُصابَ بالبرد الآنَ أيضاً!».

أظنُّني بدوتُ عابساً، لأنّها على غير العادة بَدَتْ مُحرَجَة.

«سامحني»، تُصحّحُ نفسَها سريعاً. «لا تغضب الآن».

واعتذارٌ أيضاً! إذَنْ فَلَمْ يَبقَ الكثير.

«أسامحك عن كلّ شيء»، أُحَشرِجُ، «إذا زَرَقتِها **الآن**».

تفعل ذلك. أخيراً.

«رَجَتْني أنييلا أن أعتني بك اليوم. وهي تُرسلُ لك أطيب تحيّاتِها. سوف تأتي الليلةَ وتأخذ الخفارة الليلية».

الليلة! فكرةُ أن لا أراها ثانيةً تصيبني بالرّعب. لا عَجَبَ، أقول لنفسي بمرارة، أنّها لا تريد أن تعطيني الحقنة أو أن تراني حتّى. لقد ألمَحتُ بالفعل إلى كونِها تُعطي جرعاتٍ قاتلة. أنا الأحمق إذ أردتُ اختبارَها.

ترى بيريت قنوطي. «أنييلا حسّاسةٌ قليلاً كما تعرف. يصعبُ عليها أن تراكَ تعاني.

تلك هي الحال. إنّها مُتَعَلِّقَةٌ بك كثيراً. أنا أيضاً، لكنّك تعلم ذلك».

ما ألطَفَ ما قالته بيريت. تغدو ابتسامتي الشاكرةُ عبوساً. كانت تستحقّ وداعاً أفضل. ظنّي الخبيث أنّها سعت لإقناعِ أنييلا بالمجيء إليّ الليلة. أنّها في الحقيقة لا تريد لقائي. ولكنّها لا تعرف حقّاً مثلي أنّها ستكون المرة الأخيرة. أنني انتهيتُ من كلّ شيءٍ وتصالحتُ مع الجميع. ولقد أخذتُ وداعي. إلا منها.

هذا اليوم من أكتوبر، الذي أعتبره اليومَ الأخيرَ، يمضي في نصفِ نومٍ وأنصافِ آلام وإنهاكٍ ثقيل. يسطو المورفين على أغلب أحاسيسي القليلة. المفروض أن أكون يقِظاً هذه الليلة، إنّه الأمر الوحيد الذي لا يزالُ يعني شيئاً.

تأتي، وأنا ساهرٌ تبعاً لظروفي. كل شيءٍ هادئ، وكأنّ الجميع إمّا عادوا إلى منازلهم أو ماتوا. بَلى، إنّها تعرف أنّها المرة الأخيرة، أرى ذلك عليها، فهي تعرف نتائجَ التحليلات ومُنحَنَياتِ الحُمّى التي لم أطلبها أبداً. نعم، إنّها ترتدي فستانَها الأزرق وقد خلعت عن نفسها سترة الممرضة. ولقد سامحتني وعُدنا صديقين. أُرَحِّبُ بالحقنة ككُلّ المرّات الأخرى، لم يعد هناك أيُّ انعدامٍ للثقة.

تفتح النّافذة، وهي تعلم أنني أرغب بذلك.

«ابقَي جالسةً لبعض الوقت. خذي يديَّ. انظري إليَّ، لن نرى بعضنا أبداً بعد الآن. أنا متأكّد».

أسمع كيف يبدو صوتي مثل غرغرةٍ فأصمت ممحوناً. تمنّيتُ لو بقينا صامتَينِ معاً ولكنني خشيتُ أن تُغادِرَ إنْ لم أقلْ شيئاً. تستشعرُ ذلك فأتلهّف لألَبّي وأكثر. تخلَعُ نعليها وترقد إلى جانبي. عندَها لم تعد لديّ أمنيةٌ أخرى. ولكنني أتذكّرُ ذلك الذي كُنتُهُ مؤخّراً، ذلك الذي أرادَ الانزلاقَ إلى داخلِها، والتحرُّكَ فيها ومُقاسَمَتَها النَّفَسَ نَفَسَه. حين يفقد المرء كلّ هذا لا يكون الموتُ صعباً. الآن نحظى بالسُّكونِ معاً، وسماعِ الأنفاس وخُطى الليلِ العذب. ضغطُ جسدِها النّاعِمُ يكادُ يجعلني سعيداً. لكنني لا أستطيعُ الإجابة، ولم يعد الدفء يصلني.

لا أعرف كم من الوقتِ بَقِيَتْ راقدةً، فقد انطفأتُ. في نومي لاحظتُ أنّها غابت، خِفتُ لكنّني لم أُفِقْ.

أمْ لَعلّي مستيقظٌ مع ذلك؟ أشعر بالبرد. أفكّر بالنافذة التي فَتَحتها. لكنّني لا أريد الذهاب إلى هناك. أنا عازمٌ على اتّخاذ الطريق الكبيرة للخروج، أحاولُ نقل ساقيّ فوق حافّة السرير لكنّ ثِقَلاً هائلاً يضغط فيثبّتُهما. الجو بارد. أريد رفع ذراعي كي أشعل المصباح، لكنّه لا يتحرك. هذا كلّ ما في الأمر. لن يتكرر أبداً. الصوتُ هناك في

الداخل ضعيفٌ للغاية. شكراً، أنييلا. النّهاية طيبة.

---

(1) سِستَر (بالسويدية «syster»، وبالانجليزية «sister»): أخت، تسميةٌ شائعة للممرضات، تستخدم حتى في عددٍ من البلدان العربية، وهي مأخوذة من صفة «الأخت» التي تُطلَق على الراهبات اللواتي كُنَّ يمارسنَ التمريض وصنوف الرعاية سابقاً. اعتمدها المؤلف في أكثر من موضع في الرواية للإشارة إلى الممرضات تحبباً وحميميةً.

(2) مخيّم القاعدة: مصطلحٌ يطلقه متسلّقو الجبال على أوّل مخيّمٍ ينصبونه عند سفح الجبل الذي هم بصدد تسلقه.

(3) Drop-out (مصطلح انجليزي): عكس «drop-in»، ويختلف معناه باختلاف السياق. أورده المؤلف هنا باعتباره صفةً، ففتح تأويلَه على أكثر من معنى. فإن رآه القارئ صفةَ فاعل فسيعني إما «التّارك» أو «المُنسَحِب» أو «المتخلّي»، أو «الخارج» أو «النابِذ» أو «المُهمِل»..إلخ، من جهة. وإن أوّلَهُ على أنه صفة مفعول، فسيكون معناه «المنبوذ» أو «المُهمَل» أو «المطرود» أو «المَنسيّ»..إلخ، من جهةٍ أخرى. استخدام هذا المصطلح الانجليزي في هذا الموضع تحديداً مقصود، يريد المؤلف عبره من القارئ التوقّف والتأمّل. وربما قصد كل ما يمكن أن يحتمله من معانٍ متناقضة معاً.

(4) الـ«تِپس» (tips): من معانيها حرفياً «التخمين»، وتُطلق كتسميةٍ على جميع ألعاب تخمين النتائج الرياضية، على اختلاف مسابقاتها. أما الـ«توتو» (toto) فاختصارٌ لِـ «Totalisatorspel»، وهو نظامُ مراهنات (شامل) يخص سباقات الخيل، موجود بأشكال متعددة في جميع الدول التي تنظم سباقات الخيل.

(5) مونتيزوما (Montezuma): اسم آخر قياصرة الأزتيك، مونتيزوما الثاني.

(6) يوروسپورت (Eurosport): هي التسمية القديمة التي كانت معروفة عند تأليف الرواية، وحتى عام ٢٠١٥، لواحدة من أضخم القنوات التلفزيونية الرياضية الأوروبية التي تملكها مؤسسة إعلام أميركية. تأسست عام ١٩٨٩، ولها حالياً قناتان بتسميتين هما: Eurosport 1 وEurosport 2، وتبثان في ٥٩ بلداً في العالم.

(7) العبارة بالإنجليزية، معناها: «**هارت سيواصل التسديد غداً**» وفيها لعبة لغوية مُرَكّبة وعلى مستويين: فعلى المستوى الأول هناك الجناس بين كلمة «tomorrow/غداً»

وكلمتي «to Morrow/إلى موزو»، ليكون ظاهر غاية اللعبة اللغوية تحويل المعنى إلى **«هارت يُسَدِّد نحو موزو»**. أما على المستوى الثاني فاللعبة مبنية على الجناس بين كلمتي «Hart» و«Heart» (الأولى اسم والثانية تعني «قلب») من جهة، وبين كلمتي «batting» و«betting» (الأولى تعني «تسديد/ضرب/خفق» والثانية «مراهنة»). لتكون التورية بمعنى أنّ **«القلب سيواصل الخفقان غداً»** أو كذلك أن **«القلب سيواصل رهانه غداً»**.

(8) القَزق: صوت الدجاجة إذا حضنت.

(9) هُلك (Hulk): اسم أحد الأبطال الخارقين في روايات «مارڤل» المصوَّرة، وهو ذلك العالِمُ الذي يتحوّل حين يغضب إلى «وحش» أخضر هائل.

(10) المأبِض: باطن المرفق (وكذلك باطن الركبة، لكن المعنى الأول هو المقصود).

(11) سڤياڤاجَن (Sveavägen): واحدٌ من أكبر الشوارع الرئيسة في قلب مدينة ستوكهولم، عاصمة السويد. ومعنى الاسم هو «طريق السويد».

(12) لابتوب/Laptop: كومبيوتر محمول.

(13) هنا لعبٌ على مقولة معروفة في السويد، تستخدم في الترويج للذهاب إلى دور العرض السينمائي، مفادها: «الأفلام أفضلُ ما تكونُ في السينما».

(14) Monotone (انجليزية/إغريقية): النبرة الواحدة المتكررة، دلالةً على الرَتابة.

(15) أغنية التُمّ (بالسويدية: Svanesång. وبالانجليزية: Swan song): مصطلحٌ يُحيلُ إلى أسطورةٍ إغريقيةٍ قديمة عن طيور التُمّ التي تعيش حياتَها صامتةً، أو دونَ غناء، حتى إذا جاءت لحظةُ موتِها صدحت بأغنيةٍ رائعة الجمال. والمرادُ مجازاً كل جهدٍ من فعلٍ أو قولٍ أو إيماءةٍ تبدر من الكائن قُبيل رحيله. والمصطلح الذي استخدم في أعمالٍ أدبيةٍ وفنية عديدة عبر التاريخ، أصبح بمرور الزمن مصطلحاً مسرحياً يشير إلى الظهور الأخير، للممثل أو المؤدي، يحاولُ فيه أداء دوره بأفضل ما يكون الأداء. وقد تُرجِم المصطلح إلى العربية على أنه «أغنية البجعة»، وهذه ترجمةٌ خاطئة، تماماً كخطأ ترجمة «Swan lake» لچايكوفسكي إلى «بحيرة البجع»، والصواب أن تكون الأخيرة «بحيرة التُمّ».

(16) نسبةً إلى الفلسفةِ الرّواقيّة.

(17) أوڤرول (Overall): انجليزية، ويُقصَدُ بها ملبس مكوّنٌ من قطعةٍ واحدة ويغطي كاملَ البدن.

(18) أسود الرأس (أو أبو راس أسود)/svartskalle: التسمية الدارجة في السويد للمهاجر ذي الشعر الداكن اللون، تمييزاً له وحَطّاً من شأنِه، وقد مُنِعَ استخدامها رسمياً في البلاد مناهَضةً للعنصرية، لكنّها لم تزل مستخدمةً على ألسنة العامّة.

(19) مرحلة المحطة النهائية (Terminalstadiet): الاصطلاح الدارج في السويد لتسمية المرحلة الأخيرة من الرّعاية التي يتلقاها المسنّون والمصابون بالأمراض المستعصية على العلاج قبيل موتهم، لا وقت تأليف الرواية فقط، بل حتّى يومنا هذا. والمصطلح الرسمي لها بالسويدية هو «Palliativ vård» (بالانجليزية «Palliative care»). أما مُقابله في العربية فأصبح «الرعاية المُلَطِّفة» أو «الرعاية المُخَفِّفة». وقد ساهمت هذه الرواية التي بين يدي القارئ في لفت الأنظار بجدية إلى كل ما يتعلّق بها، لتشهد السنوات التي تلت صدور الرواية تطويراً هائلاً وعنايةً شديدةً بكل تفاصيلها.

(20) سولڤالا (Solvalla) هي ضاحيةٌ من الضواحي الشمالية لستوكهولم يقع فيها أكبرُ مضمارٍ لسباقاتِ الخيل في اسكندنافيا. أمّا يورجوردن (Djurgården) فهي مُنتَجَعٌ ضخمٌ يقع على عدّةِ جزرٍ في قلبِ أرخبيل ستوكهولم ويضم العديدَ من وسائل الترفيه والمتاحف والمتنزّهات والحدائق العامة وغيرها. ومعنى الاسم حرفياً هو «حديقة الحيوانات» إذ كانت من أوائل المتنزهات التي أقيمت هناك ليأخذ المنتجع اسمه منها.

(21) ثاناتولوجية: صفة من ثاناتولوجيا (بالسويدية: Thanatologi وبالانجليزية: Thanatology) وهو علم دراسة الموت انطلاقاً من المباحث الطبية والاجتماعية والدينية والنفسية. والتسمية مأخوذة من الأساطير الإغريقية، حيث كان ثاناتوس (Thanatos) تجسيدَ الموت الهادئ/الرحيم.

(22) تُمَقْمِق: تتكلّم من البطن. والمقمقة، أو التَّكلّم من البطن، فنٌّ قديم لم يبق من مظاهره سوى العروض الكوميدية للتكلّم من البطن بمصاحبة دميةٍ يستخدمها الفنان متظاهراً بمحاورتها.

Telegram:@mbooks90

(23) قورينة (أو قورينا، أو سيرين، بالسويدية: Kyrene وبالانجليزية: Cyrene): مدينة تاريخية أسّسَها الإغريق في حدود عام ٦٣١ ق.م.، في الجبل الأخضر، شمال شرق ليبيا، وهي معروفةٌ حالياً بِسم شحات.

(24) ڤانيتاس (Vanitas): منحىً فنّي ظهر في الرسم بدايات القرن السادس عشر واستمر

حتى القرن السابع عشر يرتكز على استخدام الرمزية في الأمثولة لتبيان سرعة زوال الحياة وآنيّتِها، واللاجدوى من اللذّة، وحتمية الموت.

(25) الشّعر الأجعد ميزةٌ وشارةُ حُسن في أعين أصحابِ الشعر السبط من السويديين.

(26) بالانجليزية: «حركة، رجاءً!»، كمخرجٍ سينمائي يؤذن ببدء التصوير والحركة في المشهد.

(27) يوتيبوري (Göteborg): ثاني أكبر مدن السويد بعد العاصمة ستوكهولم، وربما يعرفها القارئ العربي بسم «غوتنبرغ» المُعَرّبِ عن التسمية الانجليزية لها.

(28) فونتيئبلو (Fontainbleau): بلدةٌ فرنسية تقع على بعد ٥٥،٥ كيلومتراً جنوب شرق باريس، واسمها يعني «النافورة الزرقاء».

(29) الميلانكوليا: الأسى الرّومانسي الشفيف.

(30) كان بوسع المؤلّف أن يقول بالسويدية ما ترجمته «أقل البشر صلةً بالأمر»، لكنه لم يفعل.

(31) المونوليث (بالسويدية: Monolit وبالانجليزية: Monolith): مصطلح يطلق على المَعالِم الجيولوجيّة الطبيعية البارزة التي تكوّنها صخرةٌ وحيدة ضخمة، كبعض الجبال أو التلال، أو على قطع الصخر العظيمة التي توضع داخل مبنى أو مَعلَمٍ ما.

(32) عصا الكشاف أو عصا القِنقِن (بالسويدية: Slagruta وبالانجليزية: Dowser): غصن يتفرّع منه آخر ليشكّلا ضلعي مثلث، كان يُستَهدى به للعثور على ينابيع الماء. والقِنقِن هي التسمية العربية القديمة للعرّاف أو الكشاف الذي يتولى مهمة البحث والعثور على الينابيع.

(33) محطة ليون (Gare de Lyon): إحدى محطات السكك الحديد السبع الكبرى في باريس.

(34) الليمور (Lemur): ويسمى أيضاً بالهبّار أو الهَوبر، حيوان وجهه أشبه بوجه الفأر وجسده أشبه بجسد القرد، موطنه الرئيس مدغشقر.

(35) Good old Harry: «هاري العجوز الطّيب»، وردت بالانجليزية في الأصل.

(36) Per aspera ad acta (لاتينية): تعني تقريباً «من العَثراتِ إلى السّجلّات/من النَّصَبِ

(37) Situation Stockholm (الحالة: ستوكهولم): مجلة مستقلّة، نقابياً وسياسياً ودينياً، تأسست عام ١٩٩٥ وتمتلكها جمعية بالاسم نفسه. تُعنى بهموم ومشاكل المُشرّدين في ستوكهولم على وجه الخصوص وبعالم الظلّ في العاصمة السويدية عموماً. تصدر كل آخر أربعاء من كل شهر بواقع أحد عشر عدداً في السنة ولا يبيعها سوى المُشرّدين (المُسجّلين رسمياً لدى الجمعية والمجلة) أنفسهم، حيث يشتريها المُشرّد بسعر معين وله أن يبيعها بضعف سعر الشراء، أي أن نصف عائد المبيعات إجمالاً يكون له.

(38) المِلاط: ما يُجعَلُ بين سافي البناء ليشدّهما إلى بعضهما البعض، من طين أو إسمنت أو جص أو غير ذلك، أو ما يُطلى به الحائط.

(39) In the mood: مقطوعة موسيقية (وأغنية) شهيرة لعازف الترومبيت الأميركي جلين ميلر، وتعد من أيقونات موسيقى الجاز.

(40) الناقبة (أو قرحة الفراش): تقرّحات تظهر على جلد الإنسان نتيجة الضغط المتواصل بسبب الرقاد أو الجلوس المستمر.

(41) Wouldn't they love it (انجليزية): عبارة تعجبية تعني «ألن يحبوا ذلك!» أو «ألن يكون ذلك على مرامِهم!».

(42) فالتر فِلسنشتاين (Walter Felsenstein، ١٩٠١-١٩٧٥): مخرجٌ مسرحي نمساويّ يعتبر من عمالقة المسرح الأوربي.

(43) في الاسم «ريجمور مورتيس/Rigmor Mortis» جناس شبه تام مع «Rigor Mortis»، أي «التَخشّب الموتيّ»، وهو عَرَضٌ من أعراض الوفاة.

(44) Being Earnest: اختصار لِـ «The importance of being Earnest» (أهمية أن تكون إزنَست)، وهي مسرحية شهيرة من تأليف أوسكار وايلد. وقد ترجمت إلى العربية تحت عناوين مختلفة منها «أهمية التحلّي بالجدية» و«أهمية أن تكون جاداً» و«أهمية أن تكون مخلصاً».. إلخ.

(45) القُصَيبة (أو القُنَيّة)، بالسويدية «Kansyl» وبالانجليزية «Cannula»: أنبوب رفيع، ذو إبرة مجوّفة غالباً، يولج في أوردة أو تجاويف الجسم لإدخال أو سحب السوائل أو الغازات.

(46) Don't give up, doctor (انجليزية): لا تستسلم يا دكتور.

(47) الموت الحر (بالسويدية «Fridöd»): مصطلح رديف للمصطلح الألماني «Freitod» المستحدَث لتسمية «القتل الرحيم»، والذي يعني ضمناً أن للشخص المعني دوراً أكبر في العملية من حيث وقوعها باختياره ورغبته.

(48) نيوسپيك: اللغة الخيالية الرسمية لدولة «أوشيانيا» في رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل.

(49) هنا ثلاث إشارات، أولاها متعلقة بالإسبرطي والهَجرَس (جرو الثعلب): وهي القصة المشهورة عن الصبيّ الإسبرطيّ الذي اصطادَ هَجرَساً، واضطرّ إلى أن يخبئه تحت ثوبه عندما صادفَ عجوزاً على الطريق ريثما ينهي العجوز حديثه معه. فنهش الهجرسُ صدرَ الصبي دون أن يُبدي الأخير أية علامة على تأثره بالعض والنهش حتى وقع ميتاً. والثانية «فوق الماء»، التي أوردها المؤلف بالنرويجية (over vannet): وهي عبارةٌ تُحيلُ إلى النشيد الوطني النرويجي الذي تَرِدُ فيه كجزءٍ من وصف أرض النرويج «الشامخة» وهي تصدّ الماء/المحيط الذي يضرب سواحلها، مجازاً عن صلابة النرويجيين ضد من يعتدي عليهم. أما الثالثة، عن «الفنلنديين في الثلج»، فإشارةٌ إلى «حرب الشتاء» التي اندلعت بين فنلندا وروسيا (١٩٣٩-١٩٤٠)، والشهيرة بأن الفنلنديين انتصروا فيها لخبرتهم بأراضيهم، بثلوجها ومجاهلها.

(50) P2: إحدى قنوات الإذاعة السويدية الرسمية، كان اسمها أصلاً Programme 2/ البرنامج ٢. وهي متخصصة ببث الموسيقى الكلاسيكية وموسيقى الجاز والموسيقى الشعبية وموسيقى العالم، كما تبث برامج بلغاتٍ أخر غير السويدية للأقليات التي تعيش في السويد.

(51) «So geht zu Ende.. zu Ende mein Lied» (ألمانية): هكذا تنتهي.. تنتهي أغنيتي.

(52) إيڤيلين ووه/ Evelyn Waugh (١٩٠٣-١٩٦٦) هو كاتب انجليزي اشتهر برواياته الساخرة الناقدة للمجتمع وألّف كثيراً في أدب الرحلات. أما وودهاوس/Pelham Grenville Wodehous (١٨٨١- ١٩٧٥) فمن أشهر روائيي إنجلترا الفكاهيين في القرن العشرين. بينما توم جونز/ Tom Jones (١٩٢٨-٢٠٢٣) مسرحيٌ وسيناريست وشاعرٌ غنائي أميريكي اشتهر بتأليف الأعمال الاستعراضية (الميوزيكال) في برودواي.

(53) سيسو/Sisu: تعبيرٌ فنلندي فريدٌ لوصف عناد الحياة (الداخليّ في الكائن) وعدم الرضوخ للموت وكذلك الشجاعة والغضب والقوة الجسدية الفائقة وحتّى الشر أحياناً، ولا مقابل محدداً ودقيقاً له في لغةٍ أخرى، لكنه شائع في فنلندا ومعروف في عموم اسكندنافيا إلى حد استحداث فرعٍ للبحوث الأكاديمية عن مفهومه ضمن «الدراسات النفسية الإيجابية» منذ عام ٢٠١٣. وفي الاقتباس الذي يورده مؤلف الرواية من حوار فيلم «رجلٌ بلا ماضٍ/Mies vailla

menneisyyttä»، وهو للمخرج السينمائي الأشهر والأهم في فنلندا **آكي كاوريسماكي**، وكما في العديد من الأعمال الأدبية والفنية الفنلندية المعاصرة، مقاربةٌ لأحد معاني ودلالات هذا التعبير.

(54) Stand-in (انجليزية): بديل سينمائي.

(55) آريَل (Ariel): الجنّيّ خادم الملك بروسبيرو في مسرحية «العاصفة» لشكسبير.

(56) المرمدة (بالسويدية: Krematorium وبالانجليزية: Crematorioum): مُنشأةٌ تُحرَقُ فيها جثامين الموتى، تشتمل على محرقةٍ للجثامين وقاعات لممارسة الطقوس الجنائزية وقد تشتمل على مدافن أو مخازن لحفظ رماد الجثامين بعد إتمام عملية الحرق.

(57) كسّارة الأعناق (بالسويدية «Garrott» وبالانجليزية «Garrote»): آلة إعدام قديمة ابتدعها الرومان في القرن الأول الميلادي، وهي بهيئة كرسي أو مقعد مزوّد بمسّاكة للعنق يجلس عليه المحكوم بالإعدام وتقبض المسّاكة على عنقه ويُضَيّقُها الجلّاد حتّى يختنق المحكوم أو يُكسَرَ عنقه.

(58) إشارة إلى المعسكر النّازيّ الشهير أثناء الحرب العالمية الثانية.

(59) بَسّرڤِسّر (besserwisser): تعبير ألماني منحوتٌ من كلمتين هما «besser» و«wisser»، الأولى تعني «أفضل» والثانية تعني «عارف». ولولا الشحنة السلبية التي يحملها التّهكّم والسخرية اللذان لا يُقالُ هذا التعبير إلا في إطارهما، لكانت كلمة «علّامة» العربية الأنسب ترجمةً له.

(60) تقول بيريت لِهاسّة «The bright side of death»، وتعني بالانجليزية: «الجانب المضيء من الموت». فيبدأ إجابته بمصطلح «The silver lining» الانجليزي أيضاً الذي ترجمته «الحد الفضّي»؛ وهو مصطلح مجازيّ يفيد التفاؤل، ابتكره الشاعر جون ميلتون في قصيدة له عام ١٦٣٤، راسماً صورة نهاية الليل بتشبيه أطرافه بحوافّ الغيوم الماطرة و«الحدّ الفضّيّ» الذي يلتمع على طول تلك الحوافّ من انعكاس نور الشمس.

(61) Wie sind wir wandermüde, ist dies etwa der Tod? (ألمانية): «كم أرهقَنا السّيرُ، أهذا هو الموت؟».

(62) من عبارة أبيقور التي تكملتها «وحيث أكون حيّاً لا يحضر الموت».

(63) بومارشيه / Pierre-Augustin Caron de Beaumarchais (١٧٣٢-١٧٩٩): واحد من أبرز شخصيات القرن الثامن عشر في فرنسا، اشتهر كمؤلف مسرحي وعاش حياةً حافلةً عمل فيها ساعاتياً ومخترعاً ودبلوماسياً وجاسوساً وتاجر أسلحة عدا عن عمله الإبداعي موسيقياً وناشراً وناقداً. كما عُرِفَ بحماسة مساندته للثوار الأميركان ضد البريطانيين وللثورة الفرنسية الكبرى.

(64) Pas de rapport: تعبير فرنسي، ترجمته الحرفية هي «لا تقريرَ»، والقصد «لا شيءَ جديرٌ بالذِّكر».

(65) مِخْلَعَة (بالسويدية: sträckbänk وبالانجليزية: Rack): ربما تكون أشهر وسيلة تعذيب على الإطلاق، وهي عبارةٌ عن مصطبة أو لوح خشبي أو مجموعة من الألواح يُربطُ عليها الشخص وتُسحب أطرافه حتى تتمزق عضلاته ومفاصله.

(66) - «سعيي سيبدأ»/«Mitt kval begyns»: من قصيدة غنائية لِبَلْمان (Bellman)، أشهر الشعراء السويديين الجوّالين في القرن الثامن عشر، عنوانها «رسالة فريدمان/Fredmans Epistel».

- «حان وقت العُجالة»/«Nu är tid att hasta»: من قصيدة للشاعر السويدي الفنلندي يوهان لودفيج رونَبَرْي (J. L. Runeberg)، الذي عاش في القرن التاسع عشر، يقول فيها «أيُّها السيّدُ الفَتيُّ النبيل، حان وقتُ العُجالة».

- «Es wird ein Wein sein»: «سيكون هناك نبيذ» (أغنية ألمانية).

- «هل تذكرين ربيعاً في لوند؟»/«Minns du en vår i Lund»: من أغنية «Lundgård/ بُستان لوند»، وهي من الأغاني الشعبية التقليدية التي يُستَقبَل الربيع بها في السويد، ولوند هي إحدى مدن الجنوب السويدي.

(67) الأغنية الألمانية نفسها.

(68) ليبستود (Liebestod): ألمانية، تعني «الموت حبّاً»، أو «موت من أجل الحب».

(69) usque ad finem (لاتينية): حتى النهاية.